حديقة الحكمة

ندره اليازجي

حديقة الحكمة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١٦م

حديقة الحكمة / ندرة اليازجي. – دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٦م .– ١٤٠ص؛ ٢٥سم.

١– ١٩١ ي ا ز ح ٢ – العنوان ٣ –اليازجي

مكتبة الأسد

مُقَدِّمَة

لمـَّا كانـت الحديقـة التـي تتميَّـز بتنـوُّع أزهارهـا أو ورودها أكثر بهاءً وجمالًا مـن الحديقـة التـي تتميَّـز بنـوع واحد من الأزهار أو الورود، فقد جعلتُ عقلي حديقـةً أزرع فيها مبادئ المعرفة، والحكمـة، والـوعي، والمحبـة، والعطاء، والتضحية، والاعتراف بالآخر...

ندره اليازجي

-١-

الإنسان بين التأريخ والتاريخ(*)

«التاريخ الإنساني هو السيرورة المتطورة والمتسامية التي يحققها الإنسان، والإنسانية جمعاء، بدءًا من ألف الوجود إلى يائه، وذلك لكي يتآلف ما هو زمني مع ما هو أبدي، ما هو مادي مع ما هو روحي، ما هو أرضي مع ما هو سماوي... تلك هي الإرادة الإلهية».

ندره اليازجي

من هذا القول للمفكر الأستاذ ندره اليازجي انطلقنا في الحديث، وبدأته بالسؤال:

س ١: لقد جرت عادتي مع مَن أحادثهم ألا أضع للحديث بداية مديح لتعريف الشخصية لأنني أفترض، بل أعتقد، أن مَن أحادثهم لصالح *النشرة* أغنياء عن ذلك، فأترك لهم أن يتفضلوا بتعريف أنفسهم بما يرغبون. ليتكم تقدِّمون لنا الأستاذ والأديب والمفكر ندره اليازجي، من هو؟

ولدت في بلدة مرمريتا (سورية) سنة ١٩٣٢. حصلت على شهادة Sophomore Arts من Aleppo College سنة ١٩٥٠. تابعت دراستي الجامعية ونلت شهادة الماجستير في العلوم السياسية والاقتصادية. وفي أثناء دراستي

(*) نص حوار مع الأستاذ ندره اليازجي صدر على حلقتين في مجلة *النشرة*.

الجامعية انصرفت، على نحو اهتمام كبير، إلى البحوث الخاصة بالفلسفة الأخلاقية، ساعيًا إلى وضع قاعدة إنسانية أو صياغة مبدأ أخلاقي لهذه العلوم.

قادتني دراستي للفلسفة الأخلاقية إلى دراسة الفلسفة على نحوٍ عام. وأدخلتني هذه الدراسة المعمَّقة للفلسفة إلى نطاق علم النفس. وفي هذه الدراسة، تجاوزت علم نفس السلوك إلى علم نفس الأعماق. وقادتني هذه الدراسة إلى ولوج محراب الأديان ومبادئ الحكمة، وذلك لأسباب ثلاثة:

أولاً: لأنني كنت منذ صغري أسعى جاهدًا إلى تحقيق روحانية سامية وتقوى عميقة.

ثانياً: لأنني أردت أن أدخل إلى أعماق التجربة الروحية التي أحقق فيها المقدَّس في داخلي وخارجي.

ثالثاً: لأنني أردت أن أتعرف إلى الجوانب الروحية والإنسانية في هذه الأديان، بحيث تساعدني على مقاربتها في أعماقي، وعلى محبة جميع الناس.

والحق أن دراسة الأديان، في مضامينها، قادتني إلى التعمق في البحوث والدراسات الجارية حول الأسطورة؛ هذا، لأن القصص والروايات التي تتحدث، على سبيل المثال، عن الطوفان أو قصة الخلق وغيرها جعلتني أبحث عن مثيلات أو متوازيات لها في الأساطير.

وإذ كنت أسعى إلى معرفة الحقيقة، وأبحث عن سرِّ الوجود والسرِّ الأزلي في الكون والطبيعة والإنسان، علمت أن دراستي وبحثي وشمولية عقلي قد تكتمل بدراسة الفلسفة العلمية، الفيزياء والبيولوجيا منها على نحو خاص، وكل ما يمتُّ بصلة إلى علم التطور وعلم الفلك.

لم تكن رحلتي العقلية والنفسية والعلمية والروحية الطويلة إلا تعبيرًا عن حادثة أساسية في حياتي. ففي الخامسة عشر من عمري، انتقلت شقيقتي التي كنت أحبُّها كثيراً من هذا العالم. وبانتقالها، أو تحوُّلها، بدأت مرحلة جديدة في حياتي هي مرحلة *الشك المعرفي* والبحث عن حقيقة إله المحبة. كنت قد عاهدت الله، أي الإله الشخصي الذي عبدته واعتقدت بأنه يستجيب لِمَن يحبُّه من عابديه المؤمنين، أن يُبقي على حياة شقيقتي لقاء تكريس حياتي له. ولقد ساعدتني تجربة *الشك المعرفي* على معرفة الألوهة الحقيقية، وعلى الثبات في الإيمان القوي والعميق الذي لا يعتريه الشك بمعنى الرفض أو الإنكار.

تعمَّقت في دراسة الفلسفات باحثًا عن الحقيقة. وجدت نفسي تائهًا في صحراء تعدُّد المدارس الفلسفية، الأمر الذي دعاني للعودة إلى الاستغراق في كياني. تعمَّقت في دراسة علم النفس ساعيًا إلى فهم حقيقة نفسي، وهادفًا إلى بلوغ التوازن والتكامل في داخلي. تعمَّقت في دراسة الأديان لأجد الحكمة المنطوية فيها، وأعي سرَّ الحقيقة السامية الإلهية. وفي هذه الدراسة، تجاوزت حدود الشريعة الوضعية المكتوبة لأبلغ مستوى الناموس الإلهي الذي نُحِتَ في قلبي وعقلي وروحي. تعمَّقت في دراسة الأساطير لأفهم حقيقة العقل السابق للعقل الفلسفي، ولأعلم إن كانت الأساطير مجرَّد خرافات نسجها العقل البدائي أم أنها تنطوي في لاوعي جمعي Collective Unconscious يحدِّثنا عن الأنماط الأولية البدئية Archetypes للوجود الإنساني، وتهيِّئ السبيل لمغامرة العقل. ولقد وجدت أنها تطرح على بساط البحث المقولات العقلية والروحية، على نحوٍ غير مباشر وعلى صعيد مختلف.

تعمَّقت أيضًا في دراسة العلوم عامة، والفيزياء خاصة، لأفهم حقيقة القوانين، الطبيعية منها والكونية، التي أوجدها الله، وأدرك حقيقة السرِّ الكامن في جوهر الوجود. شئت أن أوحِّد هذه القوانين، كما يحدِّثنا بعض العلماء، في قانون واحد، أبدعه الله، ليكون شاملاً لكلِّية القوانين ومالئاً العالم. أردت،

بدراستي لفلسفة العلوم، أن أصعد مراتب سلسلة الوجود الكبرى، وأسمو من المادة إلى الروح؛ أردت، كما يقول تيار دُه شاردن، أن أُرَوْحِنَ المادة. أردت أن أعرف السرَّ الكوني والإلهي في الوجود، أردت أن أعرف كيف يتحقق هذا السرُّ في الإنسان إثر تجربة داخلية عميقة. أردت أن أشاهد ببصيرتي وأعاين بعقلي الفوقي وروحي التائقة إلى مصدرها الحقيقة السامية الإلهية في الإنسان والطبيعة والوجود في وحدة كلِّية شاملة تتكامل في جوهرها، وتتألق في تنوُّعات الحقائق والقوانين والمعادلات والتعارضات الثنائية في هذا الوسط الشمولي – الكلي والموحَّد. اتسعت معرفتي على نحوٍ أفقي في الطبيعة والكون وعلى نحوٍ عمودي في كياني... هكذا، ثبَّتُّ إيماني في الألوهة.

س ٢: معرفتي بالأستاذ ندره اليازجي، من خلال ما قرأت له، أنه ذلك المفكر الجاد والملتزم وغير المنضوي. ومن هنا، تعدَّدت المواضيع التي يفكر فيها ويكتب عنها. فمادمنا قد قرأنا مقالتكم «الإنسان والتاريخ»، اسمحوا أن نستزيدكم من هذا الموضوع. وبداية أسأل: ما معنى التاريخ؟ أو ما هو التاريخ؟ وهل التاريخ واحد أو أن فيه جدلية أيضًا؟

تعدَّدت المواضيع في مؤلَّفاتي لأنني أتيقن، على نحو إيمان، من وجود حقيقة واحدة كلِّية الانبثاث والوجود في التنوع: الواحد من خلال التنوع، والتنوع في الواحد. ولما كان السؤال يتصل بمفهوم التاريخ، ويمثل السبيل إلى معالجة هذا التنوع، فإنني أجيب بما يلي:

تشير دراسة التاريخ إلى وجود مفاهيم عديدة. وعلى هذا الأساس، يمكنني أن أتحدث عن وجود «تواريخ» نتيجة لوجود المفاهيم العديدة. هنالك ما يدعى بتاريخ الفكر، وتاريخ الفن، وتاريخ الموسيقى، وتاريخ الفكر الفلسفي أو الفكر الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي، وتاريخ البشرية جمعاء، إلخ. وقد عمدت إلى تقسيم هذه المفاهيم التاريخية، على نحوٍ مبسَّط، إلى قسمين:

أولاً: التأريخ العلني chronology، أو الخاص، الذي يروي الأحداث التي دوَّنها أناس «تأريخيون» وتتصل برغبات السلطة القائمة، أو بالأوضاع الخاصة بفئة معينة، وجُعِلتْ «حقائق» تدرَّس على نحو «عقل مكوَّن» أو عقل مبرمَج لا يُسمَح بالخروج عن قواعده. وقد أدَّى هذا النوع من «التأريخ» إلى «نوع» من تزييف الأوضاع والحقائق، أو تحريفها، أو صياغتها على نحوٍ معيَّن، بحيث تصبح قواعد ثابتة لـ«العقل المكوَّن» الذي يُحتجَز في إشراطات «الفردية التجمعية» المحكمة. لقد أصبح هذا «التأريخ» حجاباً يحول دون رؤية الحقائق الإنسانية الأخرى.«»

ثانيًا: التاريخ غير العلني الذي يتحدث عن «الحقائق» بذاتها، ويكشف النقاب عمَّا استتر من خفايا الأحداث الواقعية. والحق أن هذا النوع من التاريخ يتحدث عن «التاريخ» history بوصفه أحداثًا أو تجارب قابلة للتحليل والفهم وهادفة إلى تحسين الأوضاع البشرية ومعرفة الحقائق، والاستفادة من مضامينها المُختبَرة. وهكذا، يصبح هذا النوع من *التاريخ* أطروحة عقلية تهدف إلى إعادة النظر في الأحداث الماضية، والتعرف إلى الأخطاء المرتكَبة وتجاوُزها، والسعي إلى تحقيق مجتمع أو مجتمعات متنوعة تستند إلى حقيقة هي *تحسين الوضع البشري*. وفي هذا المنظور، يصبح هذا النوع تاريخًا إنسانيًّا تستفيد منه المجتمعات البشرية كافة. وعلى سبيل المثال، أجد في كتاب أرنولد توينبي *دراسة التاريخ* دراسة حضارية أو دراسة للحضارات على نحوٍ يكون فيه للعقل دور فاعل في الخبرة البشرية. وتؤدي هذه الدراسة إلى معرفة الحقائق على نحوٍ يتجاوز الروايات والأقاصيص. والحق أن البلدان أو الأمم التي تهتم بـ«تأريخها الخاص» قد أهملت هذا النوع من التاريخ لأنها لا تجد فيه ما يوافق تطلُّعاتها أو أطماعها أو مفاهيمها القومية أو العقائدية المغلقة. فإذا ما دعا *التاريخ الإنساني* إلى مبدأ تفاعل الحضارات والثقافات في تنوُّعها، دعا *التأريخ العلني* أو الخاص إلى صراع الحضارات. لقد أغفل التأريخ العلني الحقائق التي يُبنى عليها صرحُ

الحضارة الإنسانية، فأبرز وقائعه الذاتية الخاصة. وعلى سبيل المثال، يغفل *التأريخ* الفرنسي عن ذكر ما يُحتمَل أن يكون قد وعاه نابليون خلال السنوات الست التي قضاها في منفاه... فلعلَّه أعاد النظر في سلوكياته وتصرفاته السابقة، الأمر الذي يساعد البشرية جمعاء على فهم جديد ووعي أعظم. وفي التأريخ الخاص المخصَّص لدراسة الأهرام والعهود الفرعونية، نجد أن الحقائق العظمى ظلت منطوية في سرَّانية التاريخ الإنساني... الأمثلة عديدة... والحقيقة تتضاءل وتبهت، والمآسي تزداد...

يتمثل *التاريخ الإنساني* في «نهر الإنسانية» – الحضارة الإنسانية – الذي تصبُّ فيه الروافد العديدة والمتنوعة التي تشكَّلت والتي هي الحضارات المتنوعة التي تتفاعل في المحيط الإنساني الذي هو *الروح الفاعلة في التاريخ*. وفي هذا النهر، الذي هو نهر الإنسانية جمعاء، والروح الجامع لتنوُّعات الحقيقة، تلتقي الحضارات وتتفاعل العقول البشرية، بحيث تزداد الطاقة الروحية الفاعلة باتجاه المحبة، والوعي، والحرية، والتكامل ضمن حقيقة إنسانية – روحية واحدة. في هذا «النهر الإنساني»، وفي هذا التاريخ الإنساني الذي يشمل العام والخاص، أعاين الغاية التي أرادها الله من *التاريخ* ليكون المسيرة المثابِرة، والتطور الصاعد، والجهد الدؤوب لتحقيق الغايات العظمى من الوجود الإنساني. في هذا *التاريخ* يلتقي الله مع العالم، وفيه أشاهد ملكوت الروح الإلهية يطبَّق في ملكوت الروح الإنسانية، وفيه يعانق الله العالم.

في ما يتعلَّق بالجدلية، أجد نفسي مسوقاً بالروح، فأقول: لم تعد الجدلية مفهومًا يحافظ على مفهومه السابق. وهذا يعني أن الجدلية لم تعد أداة، أو قضية صراع ونزاع وتناقُض، ولم يعد التأليف نتاجاً لصراع التناقضات. على غير ذلك، أصبحت الجدلية مفهوماً يتحقق فيه التكامل بين قطبين متعارضين أو متقابلين، ليسا نقيضين أو متناقضين. وفي هذا المنظور، تصبح الجدلية، على المستوى الطبيعي والإنساني، حواراً يدعو

إلى تكامل الأقطاب المتقابلة في عالم الثنائية والتعددية. وهكذا، لا تشير جدلية الرجل والمرأة إلى صراع كائنين متناقضين، بل إلى تكامل تتوازن فيه حقيقة إنسانية واحدة تتميَّز بقطبين متقابلين يسعيان إلى تحقيق الوحدة الأصلية البدئية أو تكامل الثنائية في الوحدة. وبالمثل، تلتقي التنوعات الحضارية في حوار جدلي لكي تتكامل في إنسانية واحدة تتجلَّى فيها الإرادة الإلهية السامية بوضوح.

س ٣: هل التاريخ بحدِّ ذاته أزلي؟ فإنْ لم يكن كذلك، كيف يكون حال الله قبل الخلق؟ هل هو سكون مطلق بلا تاريخ في سرمديَّته؟

أسمح لنفسي أن أبدأ جوابي على النحو التالي: الله حضور *تام*، لا ماضي له ولا مستقبل؛ هذا، لأن الأزلية أو السرمدية الإلهية لا تبدأ ولا تنتهي. ولما كان الله لا محدوداً، لا موصوفًا، لانهائيّاً وأزليّاً، فإنه يخرج عن نظام الزمان والمكان. والحق أن الله لا يتطور في الزمان لأنه يفقد أزليته وسرمديَّته في مثل هذا التطور. وهكذا، يكون الله حاضرًا قبل الفيض وبعده.

يمكنني الآن أن أضيف قائلاً: بدأ الفيض بعد أن وضع الله نواميسه وقوانينه. والحق أن الوجود الأرضي يتمثل بجسر يتصل، في بدايته، بالأبدية أو اللانهاية، ويتصل، في نهايته، بالأبدية أو اللانهاية. إنه وجود يُستمدُّ من حقيقة سامية أبدية، ويتوق، في النهاية، للعودة إلى الحقيقة التي انفصل عنها لحظة الفيض. وهكذا، يمكنني أن أتحدث عن وجود الألف، أي البداية، ووجود الياء، أي النهاية... لقد بدأ الزمان والمكان لحظة بدء الفيض. ولما كان الوجود الأرضي متصلًا، في بدايته ونهايته، باللانهاية أو الأبدية، فإن الألف والياء مضمونان في هذه الأبدية اللازمانية واللامكانية.

لما كنت تحدثت عن مفهومين للتاريخ:

أ- عَلَني يذكر الأحداث الخاصة أو المروية على نحوٍ محرَّف أو تعصبي،

ب- وإنساني حقيقي، يحلِّل الأحداث لكي يبلغ مستوى من الوعي يساعد الإنسان على معاينة الحقيقة الجوهرية،

فإنني أجرؤ على القول: إن التاريخ الإنساني، الذي يهدف إلى تحقيق المبادئ الإنسانية المتمثلة بالعدالة والمساواة والحرية والوعي والمحبة، يشير إلى وجود إرادة ضمنية فاعلة في ضمائر الناس، وفي عقولهم ونفوسهم وأرواحهم، تسعى إلى تحقيق الأزلي في المحدود، والأبدي في المؤقت. وفي هذه الحالة نعاين ألق النور الإلهي في التاريخ الإنساني - الروحي.

س ٤: قلتم في مقالكم «الإنسان والتاريخ» استنتاجاً بأن «الإنسان يصنع التاريخ من خلال وعيه الذي يُنفِذه من خلال إرادة...». فكيف يصنع إنسانٌ ما هو مقحَمٌ فيه أصلاً؟ وما دور الله برأيكم في صنع أو حكم التاريخ؟ وما دور التاريخ نفسه في حكم التاريخ؟

ثمة تطابق بين عبارة «التأريخ يعيد (أو يكرر) ذاته» وعبارة «الخطأ يعيد (أو يكرر) ذاته». وإذا ما سألت نفسي: متى يتكرَّر الخطأ؟ أجيب: عندما يُحجِم الإنسان عن الاتعاظ بنتائج الخطأ الذي ارتكبه، ويتقاعس عن معرفة السبب أو الأسباب التي دعته إلى اقتراف الخطأ أو الخطيئة. فلكي ينبثق فيه ومنه إنسانٌ جديد، يجب عليه أن يعيد النظر في كلِّ لحظة من لحظات حياته، ليُحدِث تعديلًا دائمًا في نفسه، ويعي ذاته لكي يتحرر من القيود والإشراطات التي احتجزته في زنزانة الأنا المنفعلة بظلامها. وإذا ما تساءلتُ كيف يعيد التاريخ ذاته، وكيف تتكرر الأخطاء الماضية وتظهر من جديد على مسرح الأحداث؟ أجيب: عندما ترتكس عقول الناس إلى الماضي لتحيا في الماضي، وترفض الانطلاق إلى المستقبل، وتأبى أن تتأمل أخطاء الماضي بوعي يحميها من السقوط في المآسي التي عانى منها المجتمع. ويؤسفني أن أقول: إن التأريخ الذي يكرِّر ذاته هو التأريخ

الماضي ذاته الذي ارتُكِبتْ فيه الأخطاء. وبالمثل، يؤسفني أن أقول: إن كل مرحلة تاريخية تحاول أو تعمل جاهدة لمحو آثار المرحلة السابقة دون وعي منها بأنها تكرِّر مأساة الماضي أو تعيدها. فبقدر ما تعتقد أنها تجاوزت أخطاء الماضي، تدرك أنها لا تزال أسيرة الأخطاء ذاتها.

في هذا المنظور، أسمح لنفسي أن أقول: يصنع الإنسان *التاريخ الإنساني* الذي يمتلئ بالوعي والحرية والعدالة والمحبة والعلم في شتى فروع المعرفة عندما يهيِّئ نفسه بـ«عقل مكوِّن» ومنفتح قادر على إعادة النظر في أكثر الثوابت العقائدية الماضية، وذلك لكي يطوِّرها ويسمو بها إلى المزيد من المعرفة والوعي. أما الإرادة، في هذا السياق، فهي القوة أو «السلطة التنفيذية» الناتجة عن الوعي الفاعل في العقل المنفتح والمكوِّن، على نحوٍ دائم، والهادف إلى ما هو أسمى وأرقى وأعظم. وهكذا، يتجه *التاريخ الإنساني* إلى تحقيق الغايات العظمى المتمثِّلة بالمبادئ الروحية، المتمثِّلة، بدورها، بفروع المعرفة والعلم والفضيلة، والداعية إلى تطبيق فردوس السماء في فردوس الأرض. على هذا الأساس، لا يكون الإنسان مُقحَمًا في أيِّ شيء؛ هذا، لأنه هو التاريخ. إنه نتاج تطوُّر طويل الأمد، ومثال للطبيعة والكون، والثمرة التي أبدعتْها الإرادة الإلهية، والتمثيل الكامل لما هو أعلى وأدنى، وفيه تكتمل الحياة الأرضية. في هذا المنظور، يكون هو التاريخ... وبقولي هذا أعني أن *التاريخ الإنساني* هو التاريخ الذي يريده الله، أي هو المرحلة الزمنية الفاصلة، أي الجسر الممتد، بين لانهايتين وأزليتين. في هذا *التاريخ الإنساني*، تتداخل الأبدية مع الزمان، ويتَّحد الإنسان مع الله.

س ٥: كثيرًا ما نرى المؤرخين يسيِّسون التاريخ، أو بالأحرى، يتلاعبون به وبقيمه لصالح العزَّة القومية والكبرياء الوطنية. فهل يجوز للمؤرخ أن يحمل أو يتبنَّى هوية محددة؟ وكيف يتحقق التناغم في شخص المؤرخ بين حقِّ الهوية وحقِّ التاريخ مجرداً؟

ثمة فرق بين كلمة «التأريخ» وكلمة «التاريخ». في التأريخ، يكون «التأريخي» مجرد شخص يسجل انفعالاته ورغباته على صعيد معيَّن أو أصعدة معيَّنة، أو يسجل رغبات سلطة شاءت أن تجعل من ذاتها المحور الذي تدور حولها الأحداث... إنه *تأريخ مركزية الأنا الفردية أو التجمُّعية*.

أما في التاريخ، فيشاهد المؤرخ، الذي يُحتمَل أن يكون عالم الفيزياء، أو عالم البيولوجيا، أو عالم الفلك، أو الفيلسوف، أو الحكيم، أو اللاهوتي، أو الفنان، أو عالم الاجتماع، إلخ – يشاهد الأحداث، يدرسها، يفهمها، يعيها، ثم ينتقل إلى مستوى أعلى في سلَّم الحقيقة والروح والحياة.

في هذا السياق، أقتبس من الحكمة الصينية المبدأ التالي:

١– الإنسان العادي يهتم بالأشخاص.

٢– الإنسان العاقل يحلِّل الأحداث.

٣– الإنسان الواعي يسعى إلى تحقيق المبادئ.

في «التأريخ»، نجد الإنسان العادي الذي يهتم بالأشخاص، بحيث إن الجماعة تتقلص أو تُختزَل لصالح الفرد الحاكم أو إلى أيِّ فرد في شتى المجالات. وفي «التاريخ»، نجد الإنسان العاقل، العارف، الذي يحلِّل الأحداث لكي ينتقل إلى مرحلة أسمى من الوعي يطبِّق فيها المبادئ العقلية، والكونية، والاجتماعية، والإلهية؛ وعندئذٍ، يدرك الغاية من وجوده. ويؤسفني أن أقول إن «التأريخ» هو العقيدة المهيمنة على عقول الناس المكوَّنة، الأمر الذي يجعلها منفعلة في تمجيد «الفرد» أو «العقيدة» أو «العرق» أو «العنصر» إلخ... وهكذا، نرى أن «التأريخ» يذكر القادة ويُغفِل الأفراد أو الشعوب. أما التاريخ، وهو تاريخ الحياة الطبيعية والكونية والإنسانية، فإنه يتحدث عن مسيرة البشرية، عن تطوُّرها وسموِّها إلى مستويات أسمى وأجل. لذا، لا يحمل التاريخ الإنساني هوية تميِّزه... إنه كيان الإنسانية وروحها.

س ٦: كم يوجد من السرِّ في التاريخ؟ وكم يوجد فيه من الحق والصدق؟

أبدأ حديثي بإلقاء الضوء على كلمة «السر»: ليس *السرُّ* مجرد حديث لم أسمعه، أو حادثة لم أسمع بها، أو معاهدة بقيت طي الكتمان لفترة زمنية معينة. السرُّ هو *العمق*، وكلَّما تعمَّقت وجدت عمقًا أعظم. على هذا الأساس، تكون الحياة سرًّا؛ ويكون الوجود سرًّا؛ ويكون الإنسان سرّاً؛ وتكون الخلِّية أو الذرَّة سرّاً؛ ويكون الله السرَّ الأعظم الذي تكمن فيه جميع الأسرار. إذن، فالسرُّ هو ما لا أنتهي من دراسته... إنه الأبدية أو الأزلية في تجلِّيها واستمرارية صعودها.

وفي هذا المنظور، أسمح لنفسي أن أقول: ليس ثمة سرٌّ في «التأريخ» أي في التاريخ الخاص؛ لذا، يكاد يخلو من الصدق والحقيقة. فقد أغفل «التأريخ» المبادئ الإنسانية والروحية، وتجنَّب العمل في وفاق مع مضامينها التي تشمل مفاهيم الخير، والوعي، والمحبة، والسلام.

س ٧: ما أثر روحانية الشعوب في كتابة التاريخ؟

تكمن الإجابة عن هذا السؤال في ما احتوته الإجابة السابقة. فقد أغفل «التأريخيون» المبادئ، وأغفلوا الروح الفاعلة في جوهر الوجود، الطبيعي والإنساني، وتغاضوا عن القيمة الأساسية والجوهرية التي تُمِدُّ الإنسان بالمعنى. ومع ذلك، لم يغفل «التأريخيون» تدوين العقائد التي أدَّت إلى الصراع والاقتتال والحروب. وهكذا، تم احتجاز «التأريخ» في قوقعة يصعب الخروج منها. ولما كان «التأريخيون» يسعون إلى تدوين العقائد، فإنهم يغفلون، أو يُسقِطون، المبادئ الإنسانية والروحية التي تتميز بها الشعوب الأخرى. وعندئذٍ، يتغلب التعصب العقائدي والعرقي، وتموت الحقيقة على يد مَن يعتقدون بأنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة.

س ٨: لماذا ترى المؤرِّخين يتجنبون الأثر الروحي للتاريخ، مقتصرين في تعاملهم معه على الناحية المادية؟

تكمن الإجابة عن هذا السؤال في الإجابة السابقة. وكما ذكرت، فقد ارتبطتْ مصلحة الأفراد بتعظيم أو مساندة «التأريخ» و«التأريخيين»، وذلك لأن الروحانية الماثلة في التاريخ الإنساني تدعوهم إلى أن يكونوا أناسيين وأبناء للمعرفة والحقيقة، دعاةً إلى الوعي والمحبة والسلام. أما مصالحهم فإنها تتنكر لهذه الدعوة؛ وبالمثل، يتجه ضيق أفقهم الفكري إلى التعصب القومي أو المذهبي. وعلى الرغم من هذا، فقد عمدوا إلى زجِّ الروحانية الزائفة في سلوكهم وتصرفاتهم، وكثيرًا ما ادَّعوا بأنهم «حماة الإيمان»، «المدافعون عن المقدسات»؛ وهم، في ادِّعائهم هذا، غير صادقين. لقد سيطر «تأريخ» الأنانية، فألحق بذاته كل مصلحة مادية، وزيَّف المبادئ الروحية وجعل منها «عقائد» تخدم مصلحتهم وتُلحِق الأذى بهم وبالآخرين.

س ٩: لو كان لندره اليازجي أن يختار من التاريخ شخصًا يقابله، فمَن يختار ولماذا؟

منذ حداثتي، جعلت من *كريستوس*، أي المسيح، القطب الذي أتجه إليه. فقد آمنت به بعد دراسة معرفية اختبرتها وتأمُّل عميق في سرَّانية الوجود الإنساني. لذا، كان كريستوس، أي المسيح، الألف والياء من حياتي. ولكونه *آدم الثاني*، فقد علَّمني أن أكون *آدم الأول* ما قبل السقوط – وأعني أن أكون *الكائن الإلهي المحقَّق في الإنسان*. لقد علَّمني، في تجسُّده وفي إنسانيته، كيف أتألَّه. هكذا، يحتل كريستوس الذروة العليا من حياتي الروحية والاجتماعية والاقتصادية والمعرفية. وفي المرتبة الثانية، يبرز جميع الحكماء الذين تجرَّدوا من العقائدية الضيقة، وجعلوا من الوعي والمحبة والمعرفة

والسلام الداخلي والخارجي السُّبُل التي تؤدي إلى تأسيس ملكوت السماء في ملكوت الأرض.

س ١٠: نترك ما مضى من التاريخ ونسأل ندره اليازجي: ماذا يودُّ أن يفرض على مستقبل التاريخ، لو كان له أن يفعل ذلك؟

في فصل من فصول كتابي *دراسات في المثالية الإنسانية*، تحدثت عن الإيجاب والسلب. لقد نفيتُ وجود السلب بوصفه جوهرًا أو ماهية. لذا، كان الشرُّ سلباً للخير، أي انعدامًا له؛ وكان الجهل سلبًا للمعرفة والوعي أو نفيًا لهما؛ وكان الظلام سلباً للنور؛ إلخ. والحق أنه لا يوجد ظلام في النور، ولا يوجد شرٌّ في الخير، ولا يوجد جهل في المعرفة، إلخ. ويؤسفني أن أقول بأن غالبية الناس يعيشون في نطاق السلب، لأنهم لا يعون الإيجاب أو لا يحيون في نطاق الإيجاب. ومن جانبي، لا أستطيع أن أقوم بأي فعل يُذكَر في مجال التاريخ الإنساني إلا بالواجب الذي يدعوني للدعوة إلى الإيجاب الذي يخلو من السلب. لقد انتهت تجربة المسيح ثلاثية البُعد، إلى نهاية السلب، أي إبليس. وفي حقل التطبيق أقول: لو كنت مهيَّأً لتحقيق تاريخ مستقبلي يأخذ بيد الإنسان إلى ما هو أسمى وأعظم، لتبنَّيتُ مقولتين هامتين، أو مبدأين هامين، جعلتهما مبدأين أو مقولتين أساسيتين في حياتي هما:

أولاً: قول المسيح: «من أراد أن يكون فيكم عظيمًا فليكن لكم خادمًا».

ثانيًا: دعوة سقراط وأفلاطون إلى تحقيق المجتمع الفاضل الذي يرأسه فيلسوف – حكيم – خادم.

س ١١: لو كان لندره اليازجي – متَّعه الله بالصحة وطول العمر على الأرض – أن يقضي الأبدية مع زمرة من أهل التاريخ، فأيَّهم يختار ولماذا؟

تحدثت في الإجابات السابقة عن «التأريخ الخاص» و«التاريخ الإنساني»؛ تحدثت عن «تأريخ» العقائد و«تاريخ» المبادئ؛ تحدثت عن الإيجاب والسلب. ولمَّا كنت أَبَيْتُ، بل رفضت الانتماء إلى أي فئة أو مذهب أو عقيدة، خشية أن يبعدني هذا الانتماء أو يقصيني عن حقيقة روحانيتي، فقد سعيت دائمًا أن أكون مع الجميع، محبًّا لهم، فأضمَّهم إلى كياني دون أن أكون تابعًا أو خاضعًا لمؤسَّسة تفرض عليَّ أو تطلب مني العداء أو التصلب ضد أبناء طائفة أو مذهب أو عقيدة أخرى، أو التعصب الذي يجعلني ممثلًا لإبليس، أي السلب. وهكذا أقول: أحبُّ أن أقضي حياتي الأرضية وحياتي الأبدية مع الصالحين والأبرار من كل فئة أو ملَّة، وأدعو الألوهة المتسامية والماثلة في أعماقي أن تسامح الآخرين وتساعدهم على معرفة الحقيقة. أقول هذا وأنا على علم وإيمان بأن الاعتقاد بامتلاك الفئة – أي فئة – للحقيقة المطلقة ضلال مبين. وهكذا، أنتمي إلى الحقيقة والحرية التي دعا إليهما كريستوس – المسيح: «تعرفون الحق والحق يحرركم»، وإلى الكمال الذي يدعو إليه: «فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماء كامل»... ثمة مَن يدعوني إلى محبَّته في أنحاء العالم كلِّها، في الطوائف والفئات والشعوب كافة... إني أنتمي إلى الإنسانية التي أضحِّي من أجلها، كما ضحى المسيح، وكما أحبَّها الله.

-٢-

السعادة في الحياة الإنسانية

أحبُّ، قبل أن أبدأ حديثي، أن أشير إلى أني لا أهدف أن أجعل من موضوع بحثي هذا تعليمًا أو إرشاداً يوجِّه الإنسان إلى الطريقة التي تحُول دون تحويل حياته إلى مأساة وتعاسة. فعلى غير ذلك، يستقيم موضوع البحث في صياغة شاملة على النحو التالي: لِمَ يحوِّل الإنسان غبطة الحياة إلى تعاسة وشقاء؟

وإذ أتأمل واقع الوجود الإنساني أتساءل في سرِّي: هل الوجود على مستوى كوكب الأرض سعادة أم تعاسة، غبطة أم مأساة، نعمة أم نقمة، خير أم شر؟ هل هو وجود يتَّسم بالمعنى أم أنه وجود يخلو من المعنى؟ وهل لهذا الوجود قيمة أم أنه حلم زائف لا قيمة له؟

لمَّا كنت أفهم وجودي من وجهة نظر إيجابية، غير سلبية، فإنني أضمِّن الوجود على مستوى كوكب الأرض المفاهيم الإيجابية المتمثلة بالسعادة، والغبطة، والنعمة، والخير، والمعنى، والقيمة، والمعرفة، والمحبة، والفضيلة، وأعتبره وجودًا يتميز باتصاليته الكونية، وأعلم أنني والكون *حقيقة واحدة*. وفي هذا الفهم، تتألَّق كونيتي، وينتهي إحساسي المضني بالزوال والتفاهة. وعندئذٍ، أتساءل: لِمَ يطغى السلب على الإنسان، أو لِمَ يحوِّل الإنسان إيجابية وجوده إلى سلبية وجوده، وكينونته الكونية إلى وجود زائل

يحمل في تضاعيفه الألم السلبي والتعاسة؟ ولِمَ يعتبر الإنسان الذي يأخذ بموقف فكري سلبي وجوده زائفًا، مضنيًا، ويتمسَّك به في آنٍ واحد؟

وإذا كنت قد ألمحت إلى القضية الأساسية في هذا البحث، وهي فلسفة الإيجاب، فلأنني أسعى إلى وضع خطة تشتمل على بعض التصوُّرات التي قد تُلقي ضوءًا على التساؤل المطروح في عنوان البحث، لتنقذني من جحيم السلب وظلمة العبثية. وتتوضح هذه التصورات في الأطروحات التالية:

١- الصعوبة والمصيبة: أي لِمَ يجعل الإنسان من صعوبة الحياة «مصيبة»؟

٢- الحياة والمعيشة: أي لِمَ يهمل الإنسان حقيقة الحياة القائمة في المعرفة والحكمة والفضيلة والوعي، ويُغرِق نفسَه في خضمِّ الاستزادة من المعيشة التي تحمل في أحشائها أسباب النزاع والصراع المأساوي؟

٣- السعادة واللذة: أي لِمَ يسعى الإنسان إلى اللذة التي تتجسَّد في الرغبات والشهوات، وتؤدي، في نهاية المطاف، إلى الألم السلبي والإحساس بالتعاسة والإحباط وخيبة الأمل؟

٤- النظريات السلبية: أي لِمَ ينفي الإنسان القيم الإيجابية لوجوده؟ لِمَ يسلب جوهرها وحقيقتها، فيعيش في متاهات العبث واللاجدوى والعدمية؟

أولاً: الصعوبة والمصيبة

تدفعني محبتي إلى بحث موضوع هام يرتبط بالمعنى الذي نضفيه على وجودنا، والأهمية الكبرى التي نعزوها إلى حياتنا، والقيمة الإنسانية التي تعني انتفاء التفاهة. وإذا كنت ألحُّ على تجاوُز *التفاهة* فلأنني أتصدَّى لهذه الكلمة وأنا أحاور أشخاصًا ينظرون إلى الحياة بمنظار العبث واللاجدوى. فالحياة، في نظرهم، تحمل في طياتها مصائب لا تُحصى، الأمر الذي يجعل منها قضية

تافهة لا تستحق العيش والجهد. ولم يتورَّع أولئك الذين حدَّثتهم عن التصريح بأن حياتهم، وإنْ كانت تافهة وحافلة بأنواع المصائب، تمتلئ بـ«المعنى» إنْ كانت تُمِدُّهم بالملذات والمسرَّات. فهم يعتقدون أن مصائب الحياة تواجَه بمسراتها وملذاتها.

١- المصيبة حدث

لجأت إلى وحدتي، إلى طمأنينتي، أتأمَّل حقيقة حياتي الأرضية، واستغرقت في عالم زاخر بالتصوُّرات والمفاهيم والقيم، فاستخلصت ما يلي:

أ- أرفض وجود المصائب في الحياة، وذلك خشية أن أُجمِلَها في مصيبة واحدة هي وجودي. وأنا لا أقبل أن يكون وجودي «مصيبة» تشير إلى خلوِّه من المعنى والقيمة.

ب- أعلم أن مفهوم المصيبة نسبي، وأدرك أن ما هو نسبي لا يحتفظ لذاته بجوهر وحقيقة.

ت- أتيقَّن من عدم وجود المصيبة؛ هذا، لأن ما يقع لي ليس أكثر من حدث. ثمة أمور عديدة تحدث لي، ولا يليق بي، وأنا الكائن الذي يعترف بوجود حقيقة كونية شاملة متمثِّلة في كياني ووجودي، أن أدعوها «مصائب».

ث- أعتقد أن الوعي يحدِّد مفهوم الحدث أو قيمته ومعناه، وأجزم أن مستوى الوعي يعيِّن مفهوم الحدث. والحق أن الإنسان الواعي، الكونيَّ في تفكيره وعقلانيته، يعتبر الحدث مجرد صعوبة. أما الإنسان الذي يتصف بوعي متدنٍّ فإنه يعتبر الحدث الذي يقع له، أو يسمع به، أو يراه، «مصيبة». وعلى هذا الأساس، يكون الحدث صعوبة في نظر الواعي ومصيبة في نظر الإنسان غير الواعي الذي لم يحقق وعيه الكامن؛ وقد يكون هذا الأخير مسبِّباً لمصيبة تحلُّ بغيره.

عندما بلغت هذا المستوى من التحليل، أدركت أن الحياة صعوبة وليست بمصيبة، وأن الأحداث، بأنواعها الاجتماعية والطبيعية، صعوبات تتطلب الوعي الذي يجد لها حلولًا ويدرك قوانينها.

٢ – تمثُّل الصعوبة

كيف أستطيع أن أتمثَّل *الصعوبة* بمفهومها الفلسفي والفكري؟ ولِمَ تكون الصعوبة موجودة على مستوى كوكب الأرض؟ وهل هي سمة خاصة تُلازِم الوجود الأرضي أم أنها مبدأ كوني؟ وهل يوجد توافُق بين مبدأ الصعوبة والوجود المادي؟ وهل يستطيع الإنسان أن ينفذ إلى الحقيقة عبرها؟ وهل يتمكن من الانتصار عليها بالملَكات العقلية والوسائل الجسدية المتاحة له؟ وهل تُعَدُّ الصعوبة إدانة للكائن البشري أم تُعَدُّ وسيلة خلاص وطريقًا يمتلئ بالمعرفة والوعي؟

أسئلة طرحتها على نفسي، ساعيًا إلى إجابة أو إجابات كافية ومبرَّرة. ولقد هدتني بصيرتي إلى النتائج التالية:

أ– يُعَدُّ كوكب الأرض، وهو أحد كواكب العالم المادي، «أدنى» وجود ضمن سلسلة الوجودات؛ فهو يحتل الدرجة الأولى على السلَّم الصاعد إلى الوجودات أو العوالم الأخرى. والحق أن صفة «أدنى» لا تتضمن مفهوم الانحطاط، إنما تعني *الكثافة* التي يتميز بها هذا العالم المادي. لذا، تتوافق كلمة «أدنى» مع كلمة «كثافة». ويمكنني أن أقول: إن العالم المادي هو الموضع أو المكان الأكثر كثافة ضمن تتابُع الموجودات الصادرة عن طريق الفيض أو المنبثقة من الكيان الأكثر لطافة.

ب– تُعَدُّ الصعوبة القانون السائد على كوكب الأرض: جميع الأشياء قائمة في الصعوبة، والصعوبة كامنة في قلب كلِّ شيء. الولادة

صعوبة، الموت صعوبة، العلم صعوبة، الجهل صعوبة، الحصول على القوت صعوبة، كسب الصديق صعوبة، خسارته صعوبة، تحقيق المثال صعوبة، المرض صعوبة، الفراق صعوبة. ألا نرى أن الصعوبة هي المبدأ المهيمن على كوكب الأرض؟

ت- تُعَدُّ المصيبة حصيلة عدم التغلب على الصعوبة؛ هي إذن نتيجة وليست سببًا. وإذ تضعف قدرتي على التغلُّب، تزداد الصعوبة، وبالتالي، تتحول إلى مصيبة. والحق أن اعتماد هذا التصور يعني أن المصيبة تتضاعف بتناقص الوعي. ثمة سبب أدعوه الصعوبة، وثمة نتيجة أدعوها المصيبة. لذا، يمكنني أن أقول: إن مستوى الوعي هو الذي يعيِّن مفهوم الحدث على نحو صعوبة أو مصيبة.

ث- يوازي العقل الإنساني، لا بل يتجاوز، الصعوبة القائمة في العالم المادي. فبقدر ما تتجلَّى الصعوبة في الطبيعة المادية، يتهيَّأ الإنسان لمجابهتها بعقل يحتويها، ويتجاوزها، ويسمو عليها. وعلى هذا الأساس، يكون العقل أوسع من المادة لأنه يمتدُّ إلى الكون كلِّه. وإذا كانت الطبيعة والعقل كيانًا واحداً، فلا بدَّ أن تكمن في العقل قدرة تتسع للطبيعة وتتجاوزها. ومن هذه العبارة نستنتج أن الصعوبة الطبيعية كامنة في الصعوبة العقلية، وخاضعة لتسامي العقل عليها. وإذن، كيف يكون العقل، والوعي، والطبيعة، والوجود مصائب أو مصيبة؟

ج- عندما أتساءل عن سبب وجود الإنسان في عالم تهيمن عليه الصعوبة، أجيب قائلاً: إن العقل البشري لا يتطور إلا من خلال الصعوبة. وإذا كان الأمر كذلك، علمنا أن العقل يتخلف ويتقهقر في السهولة. فلا شيء يصقل العقل غير الصعوبة: هي الحافز والدافع إلى الإبداع والخلق والفهم. والحق أن الصعوبات الطبيعية، من هزَّات أرضية وبراكين وأعاصير إلخ، تعلِّم العقل طريقة استنباط القوانين واستدلال

المبادئ المتمثِّلة بالعلم. وهكذا، نستنتج أن الصعوبة التي يواجهها الإنسان تصقل قدراته العقلية. وبالإضافة إلى ذلك، نقول: إن توقُّف الصعوبة عند حدٍّ يعني توقف العقل عن المعرفة.

ح- تتمثَّل الصعوبات الخارجية بالظواهر التي نطلق عليها صفة الكوارث والفواجع التي نشاهد آثارها في البراكين والزلازل والأعاصير. والحق أن النتائج الأليمة التي تخلِّفها هذه الصعوبات الخارجية ظاهرة للعيان؛ فهي تدمِّر ما بناه الإنسان، وتزهق أرواح العديدين، وتترك وراءها التعاسة والشقاء. ومع ذلك، لا يحق لنا أن ندعوها مصائب، وذلك لسببين: أولاً، لقدرة الإنسان على الاستفادة من نتائجها؛ إذ إنه يستفيد من الطمي الذي تخلِّفه الأنهار بعد فيضانها، ومن الحمم التي تخلفها البراكين بعد انفجارها، ومن السمِّ الذي تنفثه الأفاعي، ومن احتجاز مياه الفيضانات في سدود تُستعمَل للري، إلخ. وهكذا، نرى أن الإنسان يستمدُّ طاقة من الصعوبات الخارجية. ثانيًا، إن توقُّف الصعوبات الخارجية يعني توقُّف العقل عن المعرفة. فإذا كانت أسرار الطبيعة المادية قائمة في صعوباتها، في المقاومة السالبة المضمونة فيها، يعني هذا أن اكتشاف المزيد من الأسرار، والولوج إلى باطن الصعوبات، يشيران إلى تطور العقل في نطاق المعرفة.

إذا كنَّا نرى الصعوبات الخارجية كوارث تبلغ حدّاً معيناً من الخطر على البشرية، فيجدر بنا أيضًا أن نرى الخطر الناجم من الصعوبات الداخلية. وإذا كان نطاق التدمير الذي تسبِّبه الصعوبات الخارجية محدوداً، وقد يأتي بالخير بعد انقضائه، فإن نطاق التدمير الذي تُحدِثُه الصعوبات الداخلية يكاد لا يُحد. وإذا ما سألنا: ما هي الصعوبات الداخلية؟ وكيف نقيس شدَّتها وسلبها وقدرتها التدميرية؟ أجبنا: الكراهية صعوبة كبرى تؤدي زيادتُها، أو طغيانُها، إلى التدمير. والحرب مظهر للكراهية بلغ أقصاه: ألا تعادل الآثار التدميرية الناتجة

عن الكراهية شدة مئات البراكين؟ فإذا كانت البراكين تترك وراءها الحمم النافعة، وتخلف وراءها بقعة مدمَّرة محدودة، فإن براكين الصعوبات الداخلية تقضي على كلِّ شيء ولا تخلِّف الخير في الرقعة المدمَّرة. والحق أن ما ينطبق على الكراهية ينطبق أيضًا على الصعوبات الداخلية الأخرى، كالاستغلال والكبرياء والأنانية إلخ، التي هي بمثابة البراكين التي لا تعرف حدًّا للتدمير. أليست القنبلة النووية والأسلحة الرهيبة الأخرى حصائل صعوبات داخلية مرعبة، لا يسيطر عليها الكانسان الذي أوجدها؟ وأين تقف آثار الصعوبات الخارجية بالقياس إلى صعوبات الإنسان الداخلية؟ ألا يجدر بالإنسان أن يتحكَّم في صعوباته الداخلية قبل أن يتحكَّم في صعوباته الخارجية؟ ألا يجدر بالإنسان أن يدرك حقيقته الكونية عبر صعوباته الخارجية والداخلية؟ ويمكنني أن أقول: تنتهي الصعوبات الخارجية إذ تنتهي الصعوبات الداخلية.

خ- يتلازم الوجود مع الوجوب. الوجود قضية معطاة، والوجوب هو *الوجود كما يجب أن يكون*. ولا شك أن الوجود تعبير عن صعوبة قاسية؛ إذ مطلوب من الإنسان أن يحقق أنبل المبادئ وأسماها، ويستنبط أرقى القوانين في أدنى العوالم، في أكثف العوالم وأكثرها صلابة. وعلى هذا الأساس، يُعَدُّ الانتقال من الوجود إلى الوجوب، وهو تحوُّل متصل، عمليةً شاقةً تشير إلى الصعوبة الكامنة في صلب البنية المادية، المعبَّر عنها بالمقاومة السالبة. وهل ثمة أصعب من تحقيق الوجود المحض، والوجوب الكامل، والنظام الأسمى، والوعي الكوني في عالم الوجود الأرضي الكثيف؟ ألا نعلم أن تحقيق الوجود اللطيف يتمُّ ويكتمل في تحقيق الوجود الكلِّي؟

د- ترتبط الصعوبة بالوعي، وترتبط المصيبة بانعدام هذا الوعي. لذا، يمكنني أن أقول: إن المصيبة غير موجودة أصلًا لأنها لا تُلازِم

جوهر الوجود المحض. وكما ذكرت، ثمة حدث يقع للإنسان؛ ففي كل لحظات حياتنا حدث، في كل لحظة نحيا ونموت، ونموت ونحيا. والحق أن الوعي المرافق للحدث يحدِّد مفهوم الصعوبة، ويقيم انسجامًا بينه وبين الحياة الكلِّية. إذن، فالصعوبة تكمن في انسجام الكائن البشري مع الكلِّ اللامنقسم، فيما تكمن المصيبة في الاعتقاد بالجزئية والانفصال والانقسام. وتكمن الصعوبة أيضًا في إجلال الحياة، وتكمن المصيبة في تحقيرها.

ذ- تشير اتصالية الكائن الإنساني مع الكل المتجانس في أنحاء الكون إلى تقويم ذاته على نحو متوافق مع هذه الاتصالية التي تتشابك خيوط نسيجها مع الكلِّية والشمول. ولا شك أن صعوبة هذه النظرة، أو هذا الموقف، تكمن في عملية التحقيق. وكما ذكرت في بند سابق، يُعَدُّ الإنسان مسؤولاً عن تحقيق أسمى المبادئ وألطفها في أدنى العوالم وأكثرها كثافة – تلك هي صعوبة الوجود الأرضي. وتشير الانفصالية إلى إحساس بضآلة القيمة، وتفاهة المعنى، في كون لا تُعرَف له حدود – تلك هي المصيبة. وبالإضافة إلى ما ذكرته، تشير الاتصالية إلى اعتبار الإنسان كائنًا ساميًا متعاليًا ومتجاوزًا لوجوده المادي، الأمر الذي يجعله يتسامى على كل ما يشده إلى مركزية الأنا ويقيِّده بمظاهر العيش الزائفة ليحيا حياة العقل والروح. وتشير الانفصالية إلى انقياد الإنسان لرغباته وانفعالاته، الأمر الذي يجعله مشروطاً بمظاهر العيش الخادعة ومقيَّدًا بسلاسل عبوديته، فيقوِّم نفسه من خلالها، ويتيه في عالم التفاهة و... المصيبة.

ثانياً: التعلق والرغبة والألم السلبي

يتركز البحث في هذا الموضوع في كلمتين يتجلَّى فيهما واقع الموقف، هما: الرغبة والتعلق. فالأنا مشدودة بين طرف هو الرغبة وطرف آخر هو التعلُّق. هما طرفان يتجاذبانها، ويدفعان بها، ويجرَّانها ويسحبانها، ويلهوان بها، ويطيحان بها في نهاية المطاف. هما هاويتان يتأرجح بينهما الإنسان، الذي لا يدرك حقيقة وجوده، في فراغ قاتل. ولا شك أن الإنسان الأناني كائن راغب: إنه يرغب في الأشياء، في السلع، في المتع، في الملذات، في المال الكثير، في السلطة والجاه، في العنف والسيطرة، في الذهب واللآلئ، في الأبناء، إلخ. والإنسان الأناني كائن متعلِّق: إنه يتعلَّق بما يمتلكه وبما يعتقد أنه يخصُّه، ويرفض التنازل عن تعلُّقه؛ كما أنه يضطرب إذ يتخيل خسارة امتداد أناه قبل وبعد فراقه عالم الكثافة. إنه مشدود إلى مركزية أناه، فيصعب عليه فقدها، لأنها تمثل القاعدة التي يبني عليها طمأنينته الآنيَّة أو سلامته المؤقتة أو ضمانته المزعومة. وهو يتمنَّى استمرار تعلُّقه وديمومة ملكيَّته ومملكة أناه. وما تصوُّره للأبدية على هيئة استمرار لوضعه الأرضي إلا رغبة دفينة لمتابعة هذا التعلُّق على مستويات أعلى من الوجود وإخضاع هذا الوجود لسلبية أناه. إنه يحاول مدَّ مركزيته الأرضية أو مركزيته الأنانية إلى مركزية كونية. ولقد حذَّرنا حكماء الماضي وحكماء الحاضر من الوقوع في خطأ من هذا النوع.

ثمة محاولة تقودنا إلى فهم الوضع النفسي الذي يجد الإنسان نفسه فيه راغبًا أو متعلقًا، لنجد أنفسنا نحلِّل هذا الوضع بالطريقة التالية: الإنسان الراغب كائن تعيس، يرفض واقعه ويرنو إلى وضع أو أوضاع أخرى، يتخيَّلها ويسعى إلى إشباعها، اعتقادًا منه بأنها تحقق وجوده. الإنسان الراغب كائن تتأصل فيه فكرة الحرمان والإحباط والألم السلبي، ليحقِّقها في تعويض كاذب؛ ولهذا يتوق إلى توطيد أركان أناه. والإنسان المتعلِّق كائن يعاني من التعاسة يوم يفقد ما حصل عليه وتملَّكه ووحَّده بأناه. الإنسان المتعلق يقاسي خاطرةً تريه زوال ثبات أناه ومملكة رغبته؛ وهو يسعى جاهدًا

للاحتفاظ بكل مقومات الأنا التي طرحت ذاتها في المجال الاجتماعي وثبَّتتْ قواعدها فيه. وهكذا، يستولي القلق على الراغب والمتعلق، وتسيطر الكآبة والتعاسة عليهما، لأنهما يقبعان في ظلام الأنا، ويتمسَّكان بمتاهاتها الاجتماعية. لذا، يجد الراغب ذاته قلقًا لأنه محروم من معطيات الأنا أو إطالات الذات وتضخيماتها. ويجد المتعلق ذاته قلقًا وهو يعمل للاحتفاظ بهذه المعطيات والإطالات والتضخيمات. ولا تَبانُ حقيقة هذا التعلق إلا لدى تعرُّض الأنا لفقد قاعدتها المطمئنة في ظواهرها على نحوٍ آني. وعندما نتأمل مبادئ الحكمة نجد في عبارة «ينشأ الألم السلبي من التعلق والرغبة» حقيقة سرمدية. وتتجلَّى عظمة هذا القول عندما نعلم أن الأنا الراغبة هي أنا متعلقة، والأنا المتعلقة هي أنا راغبة، وكلتاهما تدور في حلقة مفرغة. أليس الإحساس بالفراغ قلقًا مرعباً؟ أليست تغطية الفراغ قلقاً فظيعًا؟ أليس الفراغ النفسي نتاجًا لعدم امتلاء وسبباً للتعاسة؟ أليس الامتلاء وعياً وحكمة، عقلانية وسعادة؟

ينشأ الألم السلبي من التعلق والرغبة. فلكي يزول هذا الألم يجب على الإنسان إزالة الرغبة والتعلق. فمن التعلق ينشأ الألم، ومن الرغبة تنشأ الحسرة والأسى. يتعلق الإنسان بالأشياء، وبزوالها يتألم سلبيّاً. ويرغب الإنسان في الأشياء، ومن عدم تحقيقها ينشأ الألم السلبي. والحق أن فقدان الأشياء أو عدم تحقيقها وفق ما تفرضه الأنانية يؤديان إلى الألم السلبي.

لقد شدَّد الحكماء على التجرُّد، وأشاروا إلى تجاوُز الإنسان لكل ما ينتمي إلى نطاق الأنا. لقد علَّمونا أن نترك كل شيء لكي لا نتعلق أو نرغب في شيء، ولكي لا يزداد ألمنا السلبي وتتضاعف كآبتنا. ولمَّا كنَّا نرغب ونتعلق بكلِّ ما يتصل بأنانا فإن الألم السلبي يستمر. ولمَّا كان الإنسان الأناني لا يدرك المغزى المتضمن في حياته إلا من خلال تعلقاته ورغباته، فإن ألمه السلبي يقوم فيها، سواء حقَّقها أو لم يحققها – هذا، لأن

الحصول على شيء والاستزادة منه يعادلان الحرمان منه. ففي حالة الحصول نتعلق، وفي حالة الحرمان نرغب. ويتأرجح الإنسان بين الرغبة والتعلق، فيرى وجوده خاليًا من المعنى. وهكذا، يُعَدُّ الألم الناتج عن اللذة والتعلق والرغبة ألمًا سلبيّاً يقضُّ مضجع الإنسان ويلقي به في عالم القلق والضياع. أما الألم *الإيجابي* فيشير إلى تعاطف الإنسان مع وقائع الوجود. هو إحساس الإنسان بالآخر واتحاده معه في حقيقة وجودية عظمى.

ثالثًا: اللذة والألم السلبي

اللذة تعبير عن تلقائية الأنا؛ والأنا تعبير عن سلبية الوجود الإنساني. لذا، تكون اللذة مصدر كلِّ حزن وألم سلبي لأنها تحمل نقيضها دائماً. ويتمثل النقيض في واقعٍ هو أن كلَّ عمل من أعمال الأنا يحمل فناءه فيه. واللذة تعني مقاومة سلبية تنتج عن جهل الغاية القصوى للحياة الإنسانية – هذا، لأن الأنا تنفعل عندما تقلُّ قابلية الإنسان للفهم والوعي.

ولقد رأيت أن الإنسان يندم على لذَّاته عندما يكتشف عيوبه وأخطاءه؛ إنه يعلم أنه أقدم على لحظة لذة فقد السيطرة فيها على نفسه، وعلى لحظة ضعف استسلم فيها لرغباته، وعلى طمع أبداه في مسألة ما وتورَّط في مشكلة، أو على انتصار وهمي أحرزه وعلم أنه فشل واندحار، وعلى أمنية حققها وعلم أنها كانت من فعل الخيال الجامح، وعلى مجد ناله وعلم أنه كان زائفًا، أو على إحساس خالجه لحدث أليم حل بغيره... إنه يندم على اللحظات التي فقد فيها وعيه، فيتألم سلبيّاً. إذن، فاللذة يعقبها تفكير؛ وفي هذا التفكير يلمس المرء تلقائية أناه فيندم، ويتألم ألماً سلبيّاً.

رابعًا: النظريات السلبية الوجودية

تتجسَّد النظريات السلبية في كلِّ نفي للقيم الايجابية التي تعرِّفنا إلى حقيقة الوجود وجوهره. فإذا كان الوعي إيجابًا كان نفيُه سلبًا؛ وإذا كان الخير إيجابًا كان نفيُه سلباً أو سلبُه شرّاً؛ وإذا كانت المعرفة إيجابًا كان نفيُها أو سلبُها جهلاً؛ وإذا كانت المحبة إيجابًا كان نفيُها أو سلبُها كرهاً؛ وإذا كانت الجاذبية إيجاباً كان نفيُها أو سلبُها نبذًا؛ إلخ. وإذ نسعى إلى معرفة المواقف السلبية التي تطيح بعرش الإيجابية الكامنة في قلب الحياة والوجود، فإننا نتحدث عن بعض المفاهيم التي تحوِّل نعيم الحياة إلى جحيم:

أ- الوجود الإنساني رمز للصراع: منذ أن وجد الإنسان وهو يتساءل عن سرِّ وجوده، عن غاية وجوده، وعن موضعه في هذا الكون. وقد تمثَّل هذا التساؤل في صراع عميق في داخله، صراعٍ نتجت عنه أفكار عديدة حيال الوجود، أفكارٌ متناقضة في شتى فروع المعرفة. وقد عبَّرتْ هذه الأفكار، بدورها، عن حيرة الإنسان وعن قلقه واضطرابه، وتبلورت في تيارات فكرية ثلاثة:

١- صراع الإنسان مع نفسه؛

٢- صراع الإنسان مع المجتمع؛

٣- صراع المجتمع مع ذاته.

يعود ضياع الإنسان في هذا العالم إلى انفصاله عن الحقيقة الكونية وإلى عدم توصُّل العقل إلى معرفة الجوهر الكامن في الوجود. وقد عبَّر هذا الضياع عن ذاته في عبارات تشير إلى «السخط العقلي» و«النقمة النفسية» الطاغية التي تتهم الوجود بالقسوة وعدم الجدوى وانعدام الرحمة.

ب- الإنسان مقياس كلِّ شيء: إذ يخشى الإنسان معرفة جوهره وتحقيق الغاية التي من أجلها وُجِد، يغوص في عالم الخوف والجهل. وفي

هذه الحالة، يتنكَّر الإنسان للمبادئ الكونية ويرتاب في حقيقته الإنسانية والكونية.

ت- تمرُّد الإنسان: يلازم التمرد عملية العجز عن معرفة الحقيقة. ويتصل التمرد بالرفض والتخلِّي عن قاعدة فعل أخلاقية سامية. ولمَّا كان الإنسان يتقاعس عن فهم الوجود والكون ليعلم أنه والكون حقيقة واحدة، فإنه يتمرَّد على هذه الحقيقة ويرفض العالم، فيتألم على نحو سلبي.

ث- استسلام الإنسان للانفعال والقلق: يدل تمرُّد الإنسان على قضايا هامة هي:

١- تخلِّيه عن صفة التعقُّل التي تمتُّ بصلة كبرى إلى إدراك وجوده؛

٢- تخلِّيه عن الوجدان – «الوجدان ليس شيئاً»، يقول المنفعل في سلب وجوده – وعن قاعدة عمل أخلاقية؛

٣- رفضه لفكرة قَبْلية الوجود؛

٤- رفضه لفكرة تنظيم الوجود على أساس فكرة عاقلة وهادفة؛

ج- الحروب والمآسي الإنسانية تأكيد على اللاعقلانية: ليس تاريخ البشرية سوى تاريخ الحروب، لا تاريخ الفكر والحقيقة. أليس التاريخ، كما يقول هيغل، «هدنة بين حربين»؟ وإذا كان التاريخ يحفل بالحروب، فما معنى أن يحيا الإنسان؟ وإذا كان الموت نهاية كل شيء، فما معنى أن يفكِّر في الحياة؟ وإذا كانت حياة الإنسان وضيعة إلى هذا الحد، حدِّ اللاشيء، فما تعني قيمة وجوده؟ – إذ إن الخوف من الحروب يقوِّض كلَّ نظام لحياته دون أن يدري. ولماذا قُدِّر عليه

أن يكون ما لا يريد أن يكون أو أن يمثِّل دورًا لا يناسبه؟ يا لهول الوجود! ألا يعلم الإنسان أنه الوجود، وأنه يعدِّل نفسه ليحقق وجوده؟

ح- لاجدوى الحياة: «الحياة قصيرة ولا تؤخذ على محمل الجد»، قالها جورج برنارد شو في كتابه *عودة إلى متوشالح*؛ «لا شيء يستحق الجهد»، قالها اللامنتمي؛ إلخ – عبارات عديدة تردَّدت على أفواه السلبيين الذين وجدوا في الحياة عبثاً لا ينتهي. كيف أجتهد والموت في انتظاري؟ ماذا أفعل وأنا لا أستطيع أن أعرف ماذا قد يحدث لي بعد فترة زمنية؟ ألا يعني هذا أن جوهري ينعدم وحقيقتي لا توجد؟ «الأنا المنقذف في العالم»، يصرخ هوسِّرل – هذا الأنا الذي يخضع لحالة مأساوية. أي جدوى أجدها في الصمود أمام الصعوبات وهي تغلبني وتقهرني؟ الضعف الإنساني واستعباد الوجود للإنسان هما علامتان للاجدوى الحياة. إن حياة الإنسان، في رأي المشكِّكين السلبيين، تافهة لا قيمة لها. لذلك، لا يجد «صاحب المأساة» جدوى للحياة لأنه تجرَّد من كل هدف وغاية.

خ- مصير الإنسان وفكرة الموت: «مأساة الإنسان هي علاقته بالموت»، الموت الذي يفغر فاه ليبتلع الإنسان في هاوية النسيان، هاوية العدم... إنه العدم! العدم في مقابل الوجود. الإنسان السلبي يجهل أن ما دعاه بـ«العدم» *وجود ممتلئ*.

تقوِّض النظريات السلبية مملكة الإنسان. ونحن لا نشكُّ أبداً أن مَن يأخذ بهذه النظريات يتيه في «عدمية» مُرَّة وقاسية. فإنْ كان الموت يعني فنائي، وإنْ كانت الحياة لا تحمل معنى ولا تتسم بغاية، وإن كان اللاوجود نبراس حياتي، وإن كان العبث يملأ حياتي، وكان وجودي شرّاً ومصيري شبيهًا بمصير حشرة، وإن كنت ألعوبة في يد القدر وكان الخوف يملأ حياتي، فإن حياتي هباء منثور،

وقيمتي لاشيء. لكني، عندما أفكر في نفسي بهدوء، وأتعمق في معرفة الحياة والكون، أجد حقيقة تقع ضمن وجودي كما تقع إلى ما وراء وجودي المادي. أنا «شيء ما» أكثر من الطعام؛ أنا «شيء ما» أكثر من مجرد العيش؛ أنا «حقيقة» أبعد من الموت والعدم والفناء؛ وبقدر ما أنعدم وأفنى... أخلد. أنا حقيقة تجسَّد فيها العالم المادي والروحي، واشتمل على كلا النظامين: نظام الزمان والمكان ونظام الأبدية اللازمانية واللامكانية.

د- المجتمع الجحيم: «الجحيم هو الآخرون» – هكذا يقول المفكر السلبي، معبِّراً بشعوره عن فظاعة الوجود المجتمعي؛ ويشدِّد سارتر على «تعاسة الاتصال بالموجودين». ولا يخفى ما تعبِّر عنه هذه الرؤية من سواد عاتم لأنها لا تقيم الشخصية الإنسانية على العطاء والمشاركة، وتبقيها منكمشة ضمن «قوقعة» لا تعطي من ذاتها ولا تشارك في حقيقتها، بخلاف ما في النظريات الإيجابية التي هي عطاء ومشاركة، إذ هي تدعو إلى مبدأ المحبة الشاملة.

هكذا، يحوِّل الإنسان إيجابية الحياة إلى سلبها، وسعادتها إلى تعاسة، ونورها إلى ظلام، ومعرفتها إلى جهل، وصعوبتها إلى مصيبة... وطوبى لمن يعرف الحقيقة، فيتحرَّر من إشراطات الأنا.

-٣-

المغزى الأخلاقي لوجود الإنسان

«شيئان يملآن الوجدان بإعجاب وإجلال يتجدَّدان ويزدادان على الدوام كلَّما أمعن العقل في التأمل فيهما: السَّماء ذات النجوم من فوق والقانون الأخلاقي في صدري».

عمانوئيل كانط

يوجد تبايُن واختلاف بين وجهات النظر الأخلاقية. ويعود هذا التباين والاختلاف إلى الموقف الذي يتبنَّاه الإنسان حيال الوجود المادي والاجتماعي والروحي. فقد وُضِعَ مفهوم الأخلاق في قواعد وقيم ومفاهيم مختلفة ومتعددة تحدَّث عنها أناس متباينو الفكر والعقيدة. وفي هذا التباين والاختلاف، نتحدث عن وجهات النظر التالية:

أولاً: الأخلاق من منظور مكياڤيلِّي

تسوِّغ الأخلاق المكياڤيلِّية الوسيلة بالهدف المقصود. فالهدف، في رأيه، يستخدم الوسيلة ويسوِّغُها بأي شكل من الأشكال. لذا، تعد الأخلاق المكياڤيلِّية وسيلة نفعية ترتبط بالمصلحة الخاصة وتسوِّغ الخير الذاتي المؤقت، الذي ينتهي في نهاية المطاف إلى شر، وتعتمدُ المهارة والدهاء السياسي، وتشجِّع على ربط الأخلاق بالموقف الآني. وهكذا، تكون نظرية مكياڤيلِّي الأخلاقية هدَّامة لأن الخير،

في نظره، يعني المنفعة الخاصة التي تسوّغ ذاتها دون اعتبار النتائج التي تكون، في نهايتها، سيئة وضارة. ولما كانت المنفعة الخاصة تختلف من شخص إلى شخص آخر، ومن فئة إلى أخرى، ومن عصر إلى عصر، فإن أخلاق مكياڤيلّي تخلو من قاعدة عمل باتجاه إصلاح الحياة الإنسانية.

ثانياً: الأخلاق من منظور نيتشه

وضع نيتشه الأخلاق في نطاقين وصنَّفهما في مقولتين: أخلاق السادة وأخلاق العبيد. وقد أدَّى هذا التقسيم إلى ابتداع «سوپرمان» نيتشه، أي الإنسان الأعلى الذي يتخذ من إرادة القوة قاعدةً لفعله، ومن تهديم القيم وإعادة بنائها أو تقويمها مثالًا. وقد تمثَّل مفهوم «الإنسان الأعلى»، الذي أُسيء فهمه، في هيمنة القوة التي يتصف بها السادة ومفهوم الضعف الذي يتصف به العبيد. والحق إن نيتشه لم يختلف، في موقفه هذا، عن أرسطو الذي جزَّأ الجسد الإنساني إلى أعضاء أعلى تمثِّل المفكرين وإلى أعضاء أدنى تمثِّل الفئات غير المفكرة.

ثالثاً: الأخلاق من منظور البساطة والنقاء والمحبة

هي أخلاق تمتُّ بصلة وثيقة إلى الشريعة التي تشمل مجموعة الأوامر والنواهي التقليدية، أو إلى المبدأ الأخلاقي – الروحي الذي يجعل من الإنسان كائنًا أخلاقيّاً متفوقاً وسامياً. والحق إن هذه الأخلاق تدعو الإنسان إلى تحقيق كمال وجوده.

رابعاً: الأخلاق من منظور الفضيلة والمعرفة

هي المبادئ التي تعتبر المعرفة فضيلة، وتشير إلى أن المعرفة هي الوسيلة والغاية المتمثِّلتان بالخير المطلق، وأن الجهل مصدر الشر. لذا، تدعو هذه الأخلاق إلى تحقيق الإنسان العارف الذي يسعى إلى تحقيق الغاية القصوى

من وجوده، ويأبى الخضوع للأهداف المؤقتة أو المرحلية التي تبقيه سجين مركزية الأنا.

خامساً: الأخلاق من منظور مفهوم الديموقراطية

هي العقد الاجتماعي الذي يطالب الإنسان ويدعوه إلى تحقيق اجتماعيَّته المتمثِّلة بالاعتراف بالآخر والقبول به واحترام العلاقات الاجتماعية وفق قاعدة القانون، وإلى المساواة والعدالة، بغضِّ النظر عن الاختلافات الظاهرية القائمة. وتُعَدُّ هذه الأخلاق قانونًا يوطِّد العلاقات الاجتماعية المتبادلة بين الناس من وجهة نظر الكيان الاجتماعي.

سادسًا: الأخلاق من منظور اقتصادي

تشير هذه الأخلاق إلى أن الإنسان نتاج لوضعه الاقتصادي، ويتأثر بقوى الانتاج ومستواه. إنه «الإنسان الاقتصادي».

سابعاً: الأخلاق من منظور اجتماعي

الأخلاق بوصفها عملية ترفع الواقع الاجتماعي إلى المثال الذي يجب أن يكون عليه على نحو غاية قصوى ونهائية يحقِّقها الإنسان في وجوده الاجتماعي.

* * *

هكذا، تختلف وجهات النظر الأخلاقية، بحيث إنها لا تلتقي في نطاق إلَّا في بعض النقاط. فالمكيافيلِّية لا تُعَدُّ، في صميمها، مفهومًا أخلاقيّاً لأنها لا تطبِّق هذه الأخلاقية في كلِّ زمان ومكان، وفي كلِّ سلوك أو فعل غائي. ونيتشه لا يدعو إلى أخلاقية صافية ومميَّزة لأنه يعتبر الأخلاق قضية ملازمة لفرض إرادة القوة التي تحمل في مضمونها العنف على نحوٍ مباشر أو غير مباشر. ونحن نسامح نيتشه إنْ هو قصد من «إنسانه الأعلى» الغاية المثلى

التي يحقِّقها التطور الصاعد لبلوغ إنسانية سامية. أما القول بأن الأخلاق تغتبط في نطاق المعرفة الملازمة للفضيلة، فإنه قول يحصر مفهوم هذه الأخلاق، كما يذكر أرسطو، في فئة الفلاسفة والحكماء والعلماء المنهجيين دون سواهم، وذلك لأنهم وحدهم قادرون على بلوغ المعرفة والفضيلة عن طريق التفكير والتأمل، وتجرِّد مَن لا يقعون ضمن نطاق هذه الفئة من الأخلاق لأنهم لم يحققوا مستوى عاليًا تتطلَّبه مناهج المعرفة، وتجعل هذه الأخلاق من الفئة القليلة العارفة أسيادًا ومن الفئة الكثيرة غير المفكرة تابعين. وهذا، ما لا تقرُّه الأخلاق التي نعتبرها التعديل الدائم لتحقيق غاية إنسانية. وفي هذا السياق، تتمثَّل دعوتنا إلى تحقيق إنسانية شاملة لجميع الناس في توطيد أُسُس وجودنا على أخلاق البساطة والتواضع والمحبة والنقاء لأنها الوحيدة المؤهلة لتكون قاعدة عامة وهامة لجميع الناس.

في هذا المنظور أو السياق ذاته، لا نُنكر أن أخلاق المعرفة والفضيلة هي درجة عليا في سلَّم ارتقاء الإنسان وتساميه، إنما نأخذ عليها ضيق إطارها. فهي تترعرع وتنمو ضمن حدود فئة واحدة قليلة من الناس، هي فئة قليلة من المفكرين المنهجيين، ويبقى الجزء الأكبر من الإنسانية محرومًا من القيمة الأخلاقية لأنه يقع خارج نطاق التقدير أو التقييم الأخلاقي المعرفي. وفي الوقت ذاته، لا نُنكر أن المعرفة أخلاق سامية إن هي طُبِّقت في سبيل إعلاء شأن الإنسان في جميع مستويات الحياة؛ هذا، لأن أخلاق الإنسان تتطور وتتعدل وتتسع وتتعمق كلَّما ازداد الإنسان معرفة وبالتالي فضيلة. والحق إن معرفتنا بمبادئ الكون والطبيعة والإنسان تقرِّبنا، كما يعترف العديد من العلماء الكبار، من شعور خفي يحتوينا، ويجعلنا نشعر بوجود حقيقة عظمى هي الاتصالية الكونية التي يتضمَّن الإنسان فيها. ومن معرفتنا لهذه الحقيقة وشعورنا الداخلي بها، تنشأ فينا فضيلة كبرى تشير إلى انطواء الوعي الكوني والنظام الكوني في صدورنا.

في عودة إلى أخلاق نيتشه، يمكننا أن نقول بأنها تؤدي، على نحو احتمال، إلى إحداث فئة قليلة قائدة وفئة عديدة تابعة، تؤدي، بدورها، إلى الدكتاتورية وإلى المساوئ والمآسي التي تنجم عنها، بالإضافة إلى فوضى تقييم المعنى المضمون في مفهوم أخلاق السادة وأخلاق العبيد. لذا، لا يمكننا أن نعترف بأخلاقية إنسان نيتشه الأعلى لأنه إنسان يتفوَّق على أقرانه بإرادة وهمية يستخلصها من عظمة وهمية.

تعتمد الأخلاق الديموقراطية، من جانبها، على المنفعة الاجتماعية العامة، لكنها تفتقر إلى التقييم الأخلاقي الذي ينبع من وجود قبْلي. ويكون الإنسان، من وجهة نظر هذه الأخلاق الديموقراطية، عنصرًا اجتماعيًّا يقدَّر وفق ما تقتضيه مصلحة النظام والقانون، وليس وفق ما تقتضيه القيمة المضمونة في المغزى الأخلاقي لوجود الإنسان. لذا، لا تتسنَّم هذه الأخلاق الذروة المثلى لأنها تستجيب لمقوِّمات المجتمع التي تجعل من الإنسان وسيلة وتتغاضى عن حقيقة عظمى هي أن *الإنسان غاية بذاته*. لهذا السبب، لا نزال نرى شيئًا من التخلُّف الأخلاقي في الأنظمة الديموقراطية التي حوَّلت أخلاق الإنسان *الطبيعية* إلى أخلاق تجمُّعية تخضع للأعراف والتقاليد وتظهر فيها الحرية في صورتها الغامضة، والمساواةُ في صورتها الظاهرية العامة، والمساواةُ التي تأخذ بمفهوم الكم أكثر من مفهوم الكيف والنوع.

يستحيل، في نظرنا، أن تكون الأخلاق الإنسانية نتاجًا لواقع اقتصادي، وذلك لأننا نميِّز بين المعيشة والحياة. فالمعيشة هي الواقع المادي الذي يشير إلى مستوى العيش، والحياة هي الوجود الإنساني في كماله وكلِّيته. وفي رأينا، يحيا الإنسانُ وجودَه الأرضي والكوني في نظامين: نظام *المعيشة*، وهو نظام الزمان والمكان، ونظام *الحياة*، وهو نظام الأبدية أو النظام اللَّازمني واللَّامكاني. ولئن كان نظام المعيشة يعتمد على المستوى الاجتماعي والاقتصادي ليكون الإنسان كائناً اجتماعيّاً واقتصاديّاً، يعتمد نظام الحياة على

الوجود في معناه المطلق: دراسة الوجود وفهمه، دراسة الإنسان وفهمه، دراسة الحياة وفهمها، دراسة الغاية المرجوَّة من وجود الإنسان وتحقيقُها. وهكذا، تتفوَّق الحياة على المعيشة، إذ نرى أن الإنسان يحيا بالمبادئ أكثر مما يعيش بالخبز وحده، ويستطيع أن يحيا بقليل من المعيشة وبكثير من الحياة. هكذا، يحيا الأخلاقيون ويعيشون في نطاقات الحياة الإنسانية المتنوعة.

عندما نتأمل مضامين هذه المنظورات، نبلغ الغاية المرجوَّة من إدراكنا وفهمنا الممثَّلين في الأسئلة التالية: ما الغاية الأخلاقية من وجودنا؟ كيف نبرِّر أخلاقية وجودنا وأخلاقية عملنا؟ لماذا تجعل هذه الأخلاقية الإنسان غاية بذاته وليس وسيلة؟ كيف يكون الإنسان *ما يجب أن يكون* وليس «ما هو كائن»؟ ما معنى الأخلاق الإنسانية التي نتحدث عنها في كلِّ زمان ومكان، ونعتبرها قاعدة عامة، إنسانية، واجتماعية وكونية شاملة، كامنة في الإنسان لتحقيق أنسنة فائقة؟

أودُّ، في هذا النطاق، أن أجعل من هذا الموضوع بحثًا يؤدي إلى إرساء قاعدة أصيلة أبني عليها سلوكاً إنسانيّاً عامّاً يشمل، في مضمونه، الجوانب الإيجابية من النظريات المطروحة. وفي سبيل توطيد هذه القاعدة، يجدر بي أن أبحث مفهوم الأخلاق كمبدأ مكوِّن لجوهر الإنسان، وداعم لكيانه.

أولاً: الأخلاق مفهوم قبْلي

في الإنسان قانون أخلاقي، هو نظام كوني، يفعل فيه على نحوٍ مباشر أو غير مباشر، واعٍ أو تلقائي، روحي أو واقعي، عقلي أو عاطفي، شعوري أو لاشعوري. ويتجلَّى هذا القانون أو النظام في طاقة داخلية تتمثل في نور ينبعث إشعاعه من كيانه. لذا، كان سلوكنا الأخلاقي قبْليًّا يصدر عن قانون كوني نُحت في صدورنا، ويُعتبَر فعلًا آمرًا يرشدنا إلى وضع الحقيقة الكائنة فينا موضع التنفيذ.

ثانياً: الأخلاق تطور إلى غاية سامية

تتجلّى الغاية التي يسعى الإنسان إلى تحقيقها في تحرُّره من انغلاقه في مركزية الأنا، وفي السموّ إلى مستويات عليا ترفعه إلى ما يجب أن يكون. ولا يُحتمَل أبداً أن تتصف هذه الغاية بالعشوائية لأنها قائمة في صلب كيانه أو بنيته. وهذا يعني أن الإنسان يحقق إنسانيته عن طريق الفعل الأخلاقي الآمر والمتطور إلى وجود أفضل هو تحقيق لغاية روحية وُضِعَتْ في صيغة قانون كامل وشامل منذ البدء. ويتمثَّل التطور الأخلاقي باتجاه تحقيق غاية سامية هي مسيرة الإنسان المثابِرة من ألف وجوده إلى يائه المتمثِّل في كمال النهاية في البداية.

ثالثاً: الأخلاق محاكمة فكرية ومنطقية

يمكننا أن نقول: إن الأخلاق محاكمة منطقية، وليست فعلاً انفعاليّاً أو سلوكًا لدافع غامض لا يُدرَك. لذا، كان الفعل الإرادي، أي الإرادة الحرة، قراراص عقليّاً ومحاكمة منطقية.

وإذ نعتبر الأخلاق محاكمة منطقية أو فكرية فاعلة، ندرك أن الفعل الإرادي، غيرَ المنفعل، يحاكم ثم يعقل، ليصدر قراراً ندعوه حُكماً أو فكرة سليمة أو أقرب ما تكون إلى السلامة. وعندئذٍ، يتخذ الإنسان موقفًا أو يحقق سلوكاً أو تصرفاً. وتكون أفكارنا واضحة بقدر ما تكون محاكمتنا واضحة؛ وبالتالي، تكون سلوكياتنا الأخلاقية واضحة بقدر ما تكون أفكارنا، التي هي نتاج أحكامنا، واضحة.

رابعاً: الأخلاق محاكمة وجدانية

تخطئ أحكامنا العقلية والمنطقية أحيانًا. ويعود هذا الخطأ إلى احتمال عدم إحاطة العقل بأبعاد الموضوع ومقوّماته المطروحة على بساط البحث إحاطةً كاملة. وعندما تخطئ محكمة العقل لعدم توافر جميع الدلائل

والبراهين، تستأنف حُكمَها إلى الوجدان على نحوٍ يتمثَّل في إعادة النظر السليمة. وتنظر محكمة الوجدان في الموضوع الذي يمثُل أمامها. وبعد محاكمة عادلة، أي بعد تأمُّل عميق في ما انطوت عليه المحاكمة العقلية، تأخذ محكمة الوجدان قراراً. ويكون الحكم أقرب إلى الحقيقة المرجوَّة من المحاكمة الأولى. وهكذا، تعيد محكمة الوجدان النظر في قرارات محكمة العقل ومواقفها، تمامًا كما تعيد المحكمة العليا النظر في قرارات المحكمة البدائية.

خامساً: الأخلاق تعبير عن الشخصية الإنسانية

لا تكتمل شخصية الإنسان بالعلم والمهنة وحدهما؛ هذا، لأن العلم وسيلة لمعرفة الوجود، والمهنة وسيلة لكسب العيش. أما *الشخصية* الإنسانية فهي *تعبير عن كيان الإنسان المتكامل والمتوازن*، والذات الإنسانية تعبير عن هذا الكيان المتكامل في المجال الاجتماعي والمعيشي. وهكذا، يتصل العلم والمهنة بالفردية، وتتصل الأخلاق بالشخصية. وفي هذا المنظور، تُلازِم الشخصية الفعل الأخلاقي المطبَّق في العلم والمهنة معًا في النطاق الاجتماعي.

يؤسفنا أن نقول إن عددًا كبيرًا من الناس يسعون إلى المراكز «التجمُّعية» وإلى المهنة الرائجة والمربحة. والحق أن أناسًا من هذا النوع لا يكلِّلون أعمالهم ومهنهم بالفعل الأخلاقي. وهذا يعني تحويل المبدأ الأخلاقي المتضمَّن في العمل إلى مجرَّد مهنة. وهكذا، لا يحقق أولئك الناس شخصيتهم بقدر ما يحققون فرديتهم. وبالتالي، تكتمل الشخصية الإنسانية وتتحقق بالفعل الأخلاقي الذي يجعل من الإنسان غاية بذاته، وليس وسيلة. وعندئذٍ، تكون قيمة الإنسان أجلَّ من فرديته أو مركزه التجمُّعي أو مهنته المتصلة بعلمه لسبب هو أن كيانه أكثر شمولاً من ذاته، أولاً، ولأن المهنة حقل لتطبيق الفعل الأخلاقي، ثانياً.

سادساً: الأخلاق قيام بالواجب

يُعتبَر مبدأ الواجب أصدق وأكثر سموّاً من فلسفة الحق؛ هذا، لأن *الواجب يعني العطاء والتضحية*، بينما الحق يعني الأخذ فقط. ففي الواجب يعطي الإنسان أكثر ممَّا يأخذ. وهكذا، يضعني مبدأ الواجب أمام مسؤوليتي الأخلاقية ويُلزِمني، كأمر أخلاقي، على تحقيق المزيد من الأنسنة. وتتبلور هذه المسؤولية بمقدار ما أحقق من مبدأ الواجب. لذا، كنت مسؤولاً إلى حدٍّ كبير. وكلَّما حققت واجبي حققت مسؤوليتي.

سابعاً: الأخلاق مفهوم إنساني واجتماعي

لا تتمثَّل الحكمة في حقيقة جوهرها ما لم تطبَّق. وهذا يعني أن الواجب يقضي بأن تُعاش. والأخلاق – وهي، في جوهرها، حكمة ووعي وسمو – يجب أن تُعاش أيضًا في نطاق الواقع الاجتماعي. لذا، نرى أن غالبية الناس لا يطبقون المبادئ الأخلاقية التي يتبنُّونها، وعلى غير ذلك، يتنكَّرون لها متى اصطدمت بمصالحهم الخاصة. لذا، كان وجود المجتمع امتحاناً لأخلاقي وإنسانيَّتي؛ هذا، لأن المجتمع هو الحقل الذي أطبِّق فيه سلوكي الإنساني والأخلاقي. فإذا عجزت أخلاقية وجودي عن التطبيق، انهار المجتمع وأصبح حقلًا لحضارة بائسة، وفقد الإنسان صفته الإنسانية.

هكذا، تكون الأخلاق المبدأ الأساسي لكل فضيلة اجتماعية. ولا يمكن أن تكون المجتمعات البشرية صالحة ما لم تسعَ جاهدة لتحقيق وجودها الأخلاقي وتطبيقه على نحو عملي.

ثامناً: الأخلاق تعني البساطة والتواضع

تتمثل الحكمة في تهذيب الإنسان وصقل دوافعه وتحقيق الفضيلة. وفي هذا المنظور، لا ينحرف الصدق إلى الكذب، ولا تنحرف الشجاعة الأدبية، التي تهدف إلى الوقوف إلى جانب الحقيقة والدفاع عنها، إلى خوف. وبالمثل، لا

تنحرف البساطة والتواضع إلى التكبُّر المجسَّد بعقدة العظمة الناتجة عن عقدة النقص؛ هذا، لأن سموَّ الإنسان يتألَّق في وسط حياة أخلاقية توجِّه قواه وطاقاته إلى الخير المطلق. ولما كان العنصر البسيط يشير إلى الوحدة التي لا تقبل الانقسام والتجزئة، فإن الإنسان البسيط يحيا في وسط وجود متكامل ونفس متوازنة.

تاسعاً: الأخلاق مفهوم غائي ومثالي

في أعماق النفس يكمن دافع خفي يحثُّ الإنسان على الخير والمعرفة والفضيلة، ليكون الإنسان كائناً فاعلاً في إيجابية الحياة الاجتماعية، وساعيًا إلى تحسين واقعه إلى ما يجب أن يكون المثال الذي تقع في نطاقه أبعادُه الاقتصادية والإنسانية والاجتماعية. وهكذا، يصبح المثال هو القطب الأعلى الذي يرشد الإنسان إلى الغاية التي يجب عليه تحقيقُها في هذا العالم.

عاشراً: الأخلاق قمة التطور الإنساني

يؤكد علماء الحياة أن التطور، بعد وجود الإنسان، هو نموٌّ عقلي وروحي وأخلاقي يشير إلى رفع الإنسان من المستوى المادي التلقائي إلى مستوى الوعي المستغرق في مثالية الحياة. لذا، كان مصير الإنسان وتساميه إلى أنسنة عليا فائقة ماثلًا في أخلاقية وجوده، أي في النظام الأخلاقي الماثل والكامن في كيانه.

أحد عشر: الأخلاق تضع نهاية لظاهرة القلق

تعاني البشرية من القلق الناتج عن المآسي التي سبَّبتها الحروب وعن الويلات والآلام السلبية الناتجة عن الأطماع وأنواع الاستغلال التي وضعت نهاية لشعور الإنسان بالطمأنينة والسلام والعدالة. وفي

هذا الوضع، طغى البؤس والتعاسة على حياة الناس في مجتمعاتهم المختلفة والمتنوعة.

إن وضع نهاية لهذا القلق يتطلَّب وجود قاعدة تنبثق من كيان الإنسان، ندعوها *القانون الداخلي* أو الأخلاقي الذي هو أمر يدعو إلى تحقيق القيمة الوجودية والاجتماعية والإنسانية، وليس نهيًا لأنواع السلب المعبَّر عنه بالشر.

ثاني عشر: القاعدة الذهبية

يقول عمانوئيل كانط: «الأخلاق فعل يتفق مع قانون وضعتُه لنفسي ولا أجني منه شيئاً».

أستطيع، وأنا أحقق فعلًا أخلاقيّاً، أن أجعل منه قاعدة عامة لسلوكي. ولا أستطيع أن أخرق هذه القاعدة إطلاقًا لكي لا تنهار. ولا تصبح قاعدتي الإنسانية فعلًا أخلاقيّاً ما لم أضعها قانونًا لنفسي أطبِّقه على نفسي وعلى غيري سواء بسواء؛ الأمر الذي يعني أن القانون الأخلاقي – وهو قاعدة أخلاقية ذهبية أو قانون كوني – يقتضي التطبيق على نفسي وعلى غيري سواء بسواء. لقد أصاب عمانوئيل كانط عندما قال: «افعل الفعل بحيث تُعامِلُ الإنسانية في شخصك وفي كلِّ شخص سواك باعتبارها دائمًا وفي نفس الوقت غاية في ذاتها، ولا تُعامِلْها كما لو كانت وسيلة». والحق إن هذه القاعدة الفاعلة تعبير أوَّلي عن قاعدة روحية أسمى تتمثل في العبارة التالية: «لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن تفعله بنفسك أو يفعلَه الآخرون بك».

ثالث عشر: الخلاصة المبدئية الماثلة في مفهوم الغاية الأخلاقية من وجود الإنسان

لمَّا كنَّا نسعى إلى تحقيق أخلاقية فائقة، فإننا نسعى، في الوقت ذاته، إلى استخلاص هذه الأخلاقية من القضية الأساسية التي يسعى الناس جاهدين لتحقيقها في معرفة الغاية الأخلاقية من وجودهم:

لمَّا كنَّا نجتهد في دراسة أخلاقية الوجود الإنساني، ونهدف إلى تبريرٍ أخلاقيٍّ لوجودنا على مستوى كوكب الأرض، فإننا نلتزم إسقاطَ وجهة نظر مكيافيلِّي ووجهة نظر نيتشه، واعتبارَ المنظورات الأخرى الممثَّلة بالأوامر الأخلاقية الملازمة للعقد الاجتماعي وضرورة المعرفة المتآلفة مع الفضيلة.

في هذا الإسقاط وهذا الاعتبار، نجد تبريراً في المعنى والقيمة المضمونين في الغاية الأخلاقية من وجود الإنسان. وفي هذا التبرير، تتجاوز هذه الأخلاقية الواقع المأساوي الذي تعاني منه البشرية لتجد دعمًا لها أو خلاصًا لها.

في سبيل تحقيق فعالية هذه الأخلاقية، يجدر بنا أن نستخلص النتائج الحسنة من هذه الغاية الأخلاقية التي ينشدها الإنسان في وجوده. والحق أن هذه النتائج تؤكد سموَّ القيم الأخلاقية التالية:

١- الشجاعة الأدبية أو المعنوية التي يتميَّز بها كلُّ مَن يسعى إلى تحقيق أخلاقية فائقة.

٢- الدفاع عن وجهة نظر حقيقية أو معقولة. يقترن هذا الدفاع بالشجاعة المعنوية المذكورة.

٣- الصدق في معالجة وجهة النظر الحقيقية أو المعقولة. وفي هذه المعالجة الصادقة، يكون كلُّ مَن نذر نفسه لهذه المعالجة أو التصدِّي صادقًا مع نفسه ليكون صادقًا مع الآخرين.

٤- الإصلاح الاجتماعي الذي يشير إلى توطيد أُسُس العدالة الاجتماعية.

٥- تطوير المجتمع، بمفهومه الأخلاقي، ليكون تطورًا يهدف إلى تحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في نطاق المجتمع الفاضل. وفي هذا التطوير، يحقق الإنسان أنسنة عليا.

٦- المحاكمة السليمة التي تشير إلى الفعل وفق منطق متماسك يعالج القضايا الأساسية بإدراك سليم، خالٍ من الانفعال، لتكون الأخطاء الناتجة في حدِّها الأدنى.

٧- تأدية الواجب: لمَّا كان الواجب نتاجًا لأمر أخلاقي يصدر من كيان الإنسان، فإنما ليشير إلى ضرورة تحقيق هذا الواجب الأخلاقي الآمر وتجاوز مفهوم الحق.

٨- التضحية في سبيل المبدأ: تشير هذه المقولة إلى حقيقة تتمثَّل في واقع يؤكد على ضرورة التضحية لتحقيق مبدأ أخلاقي وإنساني متضمَّن في الواجب.

٩- تجاوز الفردية إلى الشخصية: يشير هذا التجاوز إلى التَّسامي على مركزية الأنا وتحقيق إنسانية الأنا التي تشمل معاملة الإنسانية كلِّها كما لو كانت إنسانيتي.

١٠- معرفة الحقيقة: تشير هذه المعرفة إلى تجاوز الأخطاء الناتجة عن الجهل، وإلى التأكيد على أن المعرفة الناتجة عن العقل المجرَّد فضيلة في ذاتها.

١١- المنفعة المجرَّدة من المصلحة الذاتية الخاصة: تشير هذه المنفعة إلى رؤية شاملة وكلِّية تجمع الإنسانية كلَّها لتلتقي في التطبيق العملي على مستوى الوطن والعالم.

-٤-

التأمُّل العقلي

التفكير الرصين في حقيقة الوجود

أتأمَّل نفسي إذ أتأمل الوجود...

١ – التأمل ووحدة الوجود

تتجلَّى حقيقة الكون والطبيعة والإنسان في انسجام ضمني. وتتمثل هذه الحقيقة في وحدة كيانٍ غير قابلة للتجزئة والانقسام. ويتجلَّى حضور هذه الحقيقة في كياني. وهكذا، تتناغم ظاهرات الحياة في داخلي على نحو كلٍّ متَّحدٍ يشير إلى تكامل ظاهرات الكون، بعضها مع بعض، في وجود كلِّي واحد. وبالمثل، تتمثل هذه الوحدة التأليفية في كياني، وتفعل هذه الوحدة الكيانية – وهي الأنا المدركة والواعية – بهدوء وسكينة، وذلك لأنها تتجاوز الفوضى والعشوائية إلى التناسق والنظام. وفي هذه السكينة، تتألَّق الحياة في أسمى ظاهراتها ومستوياتها.

وأنا، مَن أحيا وسط هذه الظاهرات الطبيعية والكونية، وأمثِّل، كما يقول تيار دُه شاردن، العقدة التي تلتقي فيها اللَّانهاية الكبرى واللَّانهاية الصغرى، أتمثل الوعي الكوني، المعبَّر عنه بالحقيقة السامية، في كياني. فأنا أحيا في وجودي الذي يستقطب العالمين الماديَّ والروحيَّ في كيان واحد. وعلى الرغم من اعتقادي المؤمن بوجود مستوياتٍ تراتبيةٍ وتأليفيةٍ متصلةٍ، لكنني، مع ذلك، أشعر بعمق علاقتي مع هذه الوحدة التأليفية.

في كياني، أبصر ما لا يُبصَر بالعين المجرَّدة، وأرى ما لا يُرى أو يُدرَك بالحواس، وأراقب بوعي كل ما يحيط بي لكي أوحِّده في داخلي. وفي كلِّ صباح، وقبل شروق الشمس، أتألق في غبطتي، إذ أشاهد الطبيعة الجميلة وهي تزدهي بروعة تتجاوز الوصف والتحديد والتعريف. وعند كلِّ غروب، لا بل بعد كلِّ غروب، أفرح وأبتهج لاستغراقي في عالم يتمثل بنور الظلمة وضياء الروح.

إن جمال الكون والطبيعة الحية، وجمال نفس الإنسان، يُكسِبان الوجود قيمته ومعناه. فما معنى جمال الوجود إن لم نكن نشاهده ونحياه؟ وما قيمة الإحساس والشعور إن لم تكن الأنا المدركة والعارفة تحياه؟

أتعلَّم، مع مرور الأيام، أنني لا أستطيع أن أفهم قيمة الجمال الأسمى إن لم أتأمله وأستغرقه في داخلي، لكي يؤلِّف كيانًا واحدًا؟ وبالمثل، لا أستطيع أن أتفهَّم قيمة المواهب ومغزاها إن لم أكن أتأمل. لذا، تأمَّلْتُ نفسي ذاتها في التنوعات العديدة التي تشكل ظاهرات الحقيقة.

٢ – شمولية التأمل

هاءنذا أتأمل كل ما يصل إليَّ عن طريق السمع والبصر واللَّمس. تأملت محبة الإنسان للإنسان؛ تأملت محبة الأم لطفلها أو طفلتها؛ تأملت وجوه المعوزين التي تشير إلى موت الضمير في عالم يخلو من العدالة ويتحكَّم به الطمع والاستغلال؛ تأملت وجوه الأغنياء وهم يلهثون وراء المكاسب والأرباح التي تطيح بمملكة إنسانيتهم؛ تأملت وجوه الأنقياء والمحبين والحزانى وهي تضيء بنور الحقيقة؛ تأملت وجوه المتعصِّبين على نحو عقائدي، والمتشددين في سوء فهمهم لآراء الآخرين، والمعتقدين بأنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة، ويستبعدون امتلاك الآخرين لها، فرأيت الظلام الذي يخيِّم على البشرية؛ تأملت وجوه مَن يتحدثون معي وأتحدث معهم لأعاين ما يجول في باطن كيانهم؛ تأملت وجهي لأفهم حقيقة سلوكي وتصرفي؛ تأملت حركاتي وانفعالاتي؛ تأملت سلوك الناس عبر دوافعهم

لأعلم المصير الذي يتجهون إليه؛ تأملت شمس الصباح والغروب لأعاين اللَّانهاية في البداية المنتهية وفي النهاية المبتدئة؛ تأملت الموسيقى الجميلة لأحيا في عالم الانسجام؛ تأملت الرسوم الرائعة لأحدس عظمة الصور التي تبدعها الموهبة؛ تأملت هندسة البنَّاء وهندسة الطائر الذي يبني عشًّا يدعو إلى الدهشة والإعجاب، لأعاين القرابة أو الصلة بينهما؛ تأملت الإنسان الذي يشع رأسه بالذكاء، والإنسان الذي يتميز قلبه بالصفاء ويتصف بعظمة الخدمة والتضحية؛ تأملت صور الحياة والمعيشة لأشاهد المظاهر الاجتماعية في واقعها؛ تأملت الأجواء اللَّانهائية والأبعاد الكونية المتجاوزة للمكان والزمان لأعاين أبعادي الأرضية والكونية؛ تأملت فكري لأعلم كيف يفكر عقلي؛ تأملت شدو الحمام وتغريد الطيور ومعجزة هجرتها لأعلم سرَّ معرفتها؛ تأملت الزهور والورود وأنواع النباتات لأعلم سرَّ حياتها وحقيقة ألوانها ومصدر أريجها وشذاها؛ تأملت اللَّانهاية الصغرى لأرى فيها اللَّانهاية الكبرى؛ تأملت دموع الفرح ودموع الحزن التي تنساب على الوجنتين، والابتسامات التي تعبِّر عن شجون النفس العديدة وأفراحها؛ تأملت كل كلمة وكل عبارة قرأتها بوعي ينفذ إلى جوهر مضمونها؛ تأملت، فعلمت أن التأمل هو الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى اليقين القائم في العقل الواعي الذي يتعمق في فهم حقيقته وحقيقة الكون.

٣- التأمل واليقين

تدعوني الطاقة الكونية الفاعلة في كياني إلى تأمل الحقيقة الكامنة في جوهري وفي جوهر الموضوعات الخارجية. وإذ أقتنع، على نحو وجداني، أعلم أن الوجدان هو الفعالية الوحيدة التي تساعدني على التمييز بين شيء وآخر؛ إذ لا أستطيع أن أعتنق مبدأً، أو أؤمن بمقولة، أو أتيقن من حقيقة، ما لم يكن اقتناعي أو اعتقادي نتيجة محاكمة لعقلي المتأمل. وهكذا، تأكدت من أن التأمل هو الطريق الذي يسلكه العقل المنفتحُ ليبلغ مستوى اليقين والاعتقاد الحقيقي.

تزداد نفسي غبطة بزيادة التأمل الذي يؤدي إلى استنارة العقل. فقد أمضيت وقتًا طويلًا وأنا أتأمل لوحة طبيعية رائعة؛ وتسامى شعوري بالعظمة

والغبطة بعد أن وعيت عمق جمالها؛ وتعمَّقتْ الصلة التي توحِّدني مع هذه اللوحة بعد تأمُّلها. أحسست بأنني أغدقت عليها كامل شعوري وسعادتي وحزني وعمق كياني، ووهبتها فكري، وشاركتها تعاطفتي، وأصبحت وإيَّاها واحدًا. وبالمثل، شعرت بأنني أفرح حتى الملء، وأقيم علاقة وثيقة متداخلة ومتبادلة مع لحن موسيقي جميل كنت أتأمله وأنا أصغي إليه، وأنا مستغرق في نشوة لحنه. وسررت، حتى الغبطة، حين انطبعتْ مناظر الطبيعة في مخيِّلتي، حتى إذا جلست تحت شجرة، أو وقفت قرب ساقية أو ينبوع ماء، أو صعدت إلى ذروة جبل، أرسلت أشعة بصري، الخارجية والداخلية اللَّامحدودة، أتأمَّلها وأتحد معها... تأملت العبارات الواضحة والعميقة، وأعدت النظر في مضمونها وجوهر حقيقتها، لتصبح طاقة فاعلة في كياني. تأملت الوجود وناشدته أن يشاركني أفراحي وأتراحي.

٤ – أتأمل نفسي في كل شيء

في تأملي، وجدت العظمة في كل شيء ينبض بالحياة. وجدت هذه العظمة في أصغر جزيء في الكون، واكتشفت علاقتي به، وعلمت أنه يمثِّلني وأمثِّله على حدٍّ سواء. تأملت العظمة الكامنة في باطن كلِّ شيء، فعلمت أنني كنت أتأمل نفسي. كنت أتأمل نفسي في جوهر حقيقتها؛ هذا، لأن التأمل هو تأملي الذي ضمَّنتُه وجودي وأودعتُه فكري وشعوري، لأستغرق في أعماق الموضوع الذي هو، في النتيجة، موضوعي ذاتُه. وأنا، عندما أُغمض عينيَّ، يتراءى أمامي كلُّ جمال تأمَّلته، وكلُّ صورة رسمتُها في خيالي المبدع، وكلُّ فكرة كوَّنتُها، فتصبح أنا وأصبح هي. وعندئذٍ، يتسع أفق كياني، ويمتد إلى عالم غير منظور أستمدُّ منه تأملي الذي يعمِّق كياني. ففي ربيع الحياة، أتأمل ولادتها وانبثاقها وحركتها؛ وفي صيفها، أتأمل ركودها ونضجها؛ وفي خريفها، أتأمل ثورتها وقلقها؛ وفي شتائها، أتأمل تحوُّلها، أي بقاءها اللَّامتعيِّن في استمرارية واتصالية الحياة عبر الموت.

هكذا، يستمر تأملي لموت الحياة وحياة الموت. ومن هذا التأمل، أي من هذا العالم العقلي غير المنظور والماثل في عمق كياني، أستمد طاقة كبرى من الشعور والتفكير؛ هذا، لأن كل ما يحدث في عالمي الخارجي يحدث أيضًا في عالمي الداخلي. وهذا يعني أنني أتأمل نفسي وأنا أسير في الطريق المؤدي إلى كمال الحياة.

يتمثل تأملي في مشاهدة الحياة واختبارها في تطورها نحو تحقيق ذاتها كما هو في وجودها. ولمَّا كنت أمثِّل الحياة في أدق معناها، فإنما ليكون تأملي مشاهدة ذاتي والتناغم معها وأنا أتقدَّم في طريق حياتي، وعبر كلِّ ما يحيط بي وأحيط به. هكذا، أتأمل كلَّ ما أراه وأسمعه وأحسُّ به وأنا أرنو إلى البعيد، إلى ما يقع بعد تخوم أفقي. وبالمثل، أتأمل كل ما يقع ورائي وأمامي لتزداد طاقة حياتي، وأتجاوز الماضي بتأمل صحيح، وأستمرَّ في الولوج إلى المستقبل بتأمل صحيح، تتصل فيه البداية مع النهاية. وفي ثنائية قطبية التأمل، أشاهد قيمة حياتي ومعناها، وأسجِّلها في كتاب الخلود لكي أتأملها من جديد عندما يبدأ غروب شمس حياتي الحاضرة وإشراقُها، أي شروقُها في الحضور الكلِّي للوعي الكوني والحياة اللَّامتعينة.

هكذا، أغوص إلى أعماقي حين أتأمل، فتتراءى لي حقيقتي التي تجعلني أفهم نفسي. والحق أنني تعلَّمت الكثير وأنا أقرأ، على نحو تأمُّلي، سيرة حياة الحكماء الكبار، والعلماء الإنسانيين المبدعين، والفلاسفة المحبين للحقيقة، والأخلاقيين الأنقياء؛ وعلمت أن الإنسان لا يسبر عمقه الأرضي والكوني ما لم يتأمل. ويتمثل التأمل، الذي تعلَّمته منهم، في الوعي والغبطة اللذين ينقلان العقل من نطاق الإدراك الحسِّي إلى نطاق العقل الفوقي، وإلى نطاق الروح المتجلِّية في كلِّ مكان وفي كلِّ شيء. وليس بمستطاع الإنسان بلوغُ هذا المستوى، ما لم يستغرقْ تأمله، ويتَّحدْ في كيانه، ويغتبطْ في إشراقه، الأمر الذي يؤدي إلى الحياة في الوعي الكوني. وهكذا، تعلَّمت أن الحقيقة السامية اللَّامحدودة واللَّاموصوفة

في وجودها كامنة في الإنسان على نحو كثافة وتركيز. فلو لم تكن ماثلة فيه، لَتعذَّر عليه الولوجُ إلى محرابها ليتأملها في داخله.

٥- التأمل وتنمية البصيرة

لا يتحقق التأمل إلَّا بتنمية البصيرة، التي هي وعي داخلي كامن، وإيقاظها. ولا يستطيع الإنسان أن يتأمل وهو قابع في عطالة حواسه. وعندما يرفع الإنسان مستوى الشعور بحواسه، يفسح المجال لفعل وعيه وبصيرته التي تعاين الحقيقة فيها وعبرها. وتتمثل الغبطة الكاملة في هذه البصيرة المستنيرة والمحقَّقة بالتأمل؛ هذا، لأن أكثر الناس سعادةً وغبطةً ومعرفةً وحكمةً أكثرهم تأملًا وأرقُّهم شعورًا.

٦- تأمل الوعي الكوني والحقيقة السامية

يزداد تأمُّلي للوعي الكوني والحقيقة السامية المنبثة، على نحو حياة، في كلِّ مكان وفي كلِّ شيء بنظام وترتيب. وأنا، حيثما وجَّهت نظري، أعاينهما، وأشعر بهما وأحياهما. إني أراهما وأسمعهما في كلِّ كلمة أو عبارة واضحة وبسيطة أقرأها، وفي كل فلسفة وحكمة، وفي كلِّ إنسان صالح ومحب، وفي كلِّ مكان أحضر فيه، وفي كلِّ ابتسامة بريئة، وفي كلِّ نظرة معبِّرة عن التعاطف والرحمة، وفي كلِّ موهبة، وفي النظام الكوني الذي هو نظامي، وفي كلِّ واقعة تفصح عن عظمتها وتعبِّر عن كيانها وكمال تكوينها. وكثيرًا ما أحاول، وأنا أتأمل على نحو اتصال مباشر مع الحياة قاطبة، أن أعانق الحقيقة الماثلة في عظمة معجزة الوجود. وعندئذٍ، أشعر بأنني أتَّحد معها في لقاء لانهائي يعبَّر عنه بالانعتاق من التحديد الذي يفصلني عن الكلِّ الشامل. وقد جعلني هذا الاتحاد، عبر التأمل، أشعر بكرامتي وسمو قيمتي وعظمتي لأنني كائن أرضي وكوني أتجاوز الفرد

المعزول والمنفصل عن الكل، وأتسامى على مجرَّد العيش والإحساس بالتفاهة واللَّاجدوى.

تكمن الغاية القصوى والنهائية للتأمل في الاستغراق في الوعي الكوني الذي يجعل مني كائنًا كونيًّا غير محدود في وجوده. والحق أن هذا الوعي الكوني يتمثَّل في الوجود الحقيقي، أي في الوجود المحض الذي يتجاوز القياسات والمعايير المحددة بالقيم الحسية وحدها؛ الأمر الذي يعني الانعتاق من قيود الانفعالات وإشراطاتها، والانطلاق إلى عالم المبادئ العقلية المجرَّدة. وقد استنتجت أن هذا العالم هو ما ندعوه الفراغ الممتلئ واللَّامتعين. إنه عالم يتجوَّل فيه العقل المنفتح الذي يتسامى على قيود وحدود اليقينيَّات. إنه عالم الوعي والحرية.

٧- التأمل وعمق الكيان والمركز الموحَّد

ماذا يعني عمق وجودي وكينونتي؟ إنه يعني عمق الاتساع الوجودي الملازم لاتساع الوعي الكوني. وكيف يكون وجودي عميقًا وأنا أحتل مكانًا هو جسدي المادي الصغير؟ كيف يكون شعوري بالألم أو بالغبطة عميقًا وأنا لست، في ظاهري، أكثر من جسد صغير؟ أين هي أعماقي؟ ما هي أعماقي؟ وإذ أجيب نفسي، أقول: يتماثل عمقي مع عمق الكون الماثل في كياني، ومع عمق الوعي الكوني الذي يحيا فيَّ وأحيا فيه. هكذا، تكون أعماقي قائمة في وجودي وفي كياني. ولا يكتمل فهم وجودي إلَّا في الاستغراق في عالم الداخل الذي يوحِّد عالم الخارج بالتأمل الذي يُرجِع نفسي إلى نفسي، ويعكس عقلي إلى عقلي، لكي تتفاعل كلِّية كياني في الوجود اللَّانهائي.

لمَّا كنت أعجز عن الغوص إلى إعماقي إلَّا بالتأمل، فإنما الأمر يقضي بإعلان الطريقة الوحيدة للعودة إلى نفسي بعد اغترابها في عالم انفصلتْ فيه نفسي عن الاتصالية الكونية التي تتمثَّل في وحدة تأليفية. وإذا كنت نفسي، كنت

متَّحدًا معها، لأنني لا أستطيع أن أزعم بأنني أسيطر عليها، بل أتَّحد معها وأتسامى معها وأنا أُعمِلُ فكري في فكري وعقلي في عقلي أثناء التأمل. وكلَّما تأملت نفسي، يشرق نور حقيقي يزداد ضياءً وهو يتألق في المركز الموحِّد. وعندئذٍ، أسأل نفسي: أين هو مركزي الموحِّد؟ أهو في دماغي، أم في قلبي، أم في غددي، أم في أي عضو من أعضاء جسدي، أم في أعصابي، أم في مراكز طاقتي؟ إن وجودي قائم في جسدي الموحِّد بفعالياته العضوية المتواكلة ووظائفه النفسية المتكاملة. ولمَّا كان وجودي لا يتحدَّد في جزء معين، فإنه ينبعث من تكامل كياني، من وحدة الهوية التي هي روحي.

هذا ما يحدث في كياني، إذ يكون عقلي موضوع ذاته. وتنعكس أضواء عقلي على الموضوع الخارجي، فيتأمله ويحوِّله إلى كيان داخلي موحِّد. ولما كانت وحدة الهوية النفسية تتفاعل في ذاتها عبر التأمل، ويصبح الموضوع في داخلي، فإنني أتأمله. وهكذا، يبقى العقل على صلة دائمة مع كلِّ ما يتجلَّى في الكون؛ وتكون هذه الصلة، التي لا تنقطع، تأملًا.

٨- التأمل ووحدة العالم الخارجي والعالم الداخلي

أنا لا أرى، ولا أحس، ولا ألمس، ولا أشعر، ولا أفكر، بل أتأمل؛ هذا، لأن إحساسي لا يعني شيئًا إن هو ظل مجرد إحساس؛ لكنه يصبح تصورًا بعد تأمله على نحو تفكير منطقي، أي على نحو تجربة مختبَرة. فالمعنى، الذي يمنح الإحساس بقيمته، يكمن في كياني. ولو لم يكن كامنًا في كياني لَما أدركت معناه وظل إحساسًا مجردًا من المعنى. وإذ يدخل الإحساس مملكتي الداخلية، مملكة عقلي ونفسي وروحي، يصبح متحدًا معها. لذا، كان التفكير امتدادًا لتأمل الأنا ذاتَها في وحدة العالمين الخارجي والداخلي. وهذا يعني أن الإدراك الحسِّي هو المرحلة الأولى لبلوغ الوعي عبر التأمل.

وأنا أسير في طريق الحياة، أرى ظاهرات الوجود؛ ويتأمل عقلي هذه الظاهرات التي هي أوصافه في العالم الخارجي. ومنذ البدء، عنى وجود الأنا المدرِكة دراسةَ ذاتها من خلال هذه الظاهرات التي هي الرموز التي تتميز بها الطبيعة لتشير إلى سرِّها الخفي. لذا، يطرح العقل ذاته في الطبيعة، لتنعكس هذه الطبيعة فيه على نحو تصوُّر. ولا يستطيع العقل أن يدرك ماهيَّته ما لم يتأمل ذاته في الطبيعة، لتعود الطبيعة الخارجية المادية إلى الطبيعة الداخلية الواعية التي يصوغها العقل الفوقي في مبادئ ترمز إلى الوعي الكوني على نحوٍ تعود فيه الكثرة والثنائية إلى الوحدة.

٩- التجربة والاختبار

أدركت أن التأمل لا يتحقق في التجربة وحدها، لسبب هو أنها تبقى إدراكًا حسيًّا؛ هذا، لأن الاختبار هو العملية الداخلية التي تنقل التجربة إلى نطاق المعرفة العقلية، والحكمة والوعي. وقد علمت أن العلماء يختبرون تجاربهم بتأمُّل النتائج الحاصلة. فهم، في كلِّ تجربة يُحدِثونها، يتقدَّمون خطوة باتجاه معرفة حقيقة التجربة بعد اختبار مضامينها بالتأمل العقلي المجرَّد من الانفعال. وما لم يكن العقل قد بلغ المستوى الرفيع في عملية المحاكمة السليمة، فلا بدَّ أن يظل هذا العقل ضالًّا في متاهةِ حسِّيةِ التجربة. ولمَّا كان الاختبار يعتمد المنطق الصاعد في أحكامه المتصلة والمتماسكة، فإن العقل يصبح مهيَّأً لفهم التجربة ووعيها. وهكذا، علمت أن الاختبار يشمل التجربة وهي تدخل نطاق العقل الفوقي الذي يتأملها وهو يسلِّط أضواء محاكمته السليمة، الحكيمة والواعية والخالية من الانفعال أو التحيُّز. وفي هذا الاختبار، يتجاوز الإنسان إسقاطات التجربة ومغالطاتها وإرهاصاتها. ولهذا السبب، أصبحت أتجنب أو أعارض الإنسان الذي يتفاخر بحكمته الظاهرية ويدَّعي بأنها حصيلة «تجربته الطويلة». والحق أن التجربة أو التجارب التي تُلزِم الإنسان العادي على معرفة خطأه، وتُرغِمه على الانصياع لإسقاطات التجربة، لم تكن حصيلة حكمة أو وعي بقدر

ما كانت حصيلة الضَّعف الذي يؤدي إلى الاستسلام للتجربة غير المختبَرة التي بلغت حدود النتائج السيئة. وللسبب ذاته، علمت أن الوعي يقضي بالعودة أو الالتجاء إلى الإنسان الحكيم، وليس إلى الإنسان «المجرِّب» الذي يكرِّر تجربته دون وعي، وذلك لأن الإنسان الحكيم يختبر التجارب بعقل فوقي يتميز بالمحاكمة والمعرفة والوعي. وإذ يبلغ الإنسان مستوى العقل الفوقي، الذي يعتمد المحاكمة السليمة القائمة في الوعي والحكمة، يتأمل مضمون التجربة.

١٠- التأمل والذهول والتداعي

عندما بلغت هذا المستوى من المحاكمة السليمة والواعية والخالية من الانفعال، بدأت ألقي أشعة عقلي الفوقي، الذي يختبر التجارب ويسعى إلى تحقيق حياة داخلية متكاملة ومتوازنة، وأصبحت قادراً على التمييز بين التأمُّل والتداعي والذهول أو الشرود. علمت أن الذهول أو الشرود مظهر انفعالي يشير إلى تعليق التفكير على نحوٍ يكون العقل في حالة عطالة؛ وفي هذه العطالة العقلية، يسود الانفعال على نحو اضطراب نفسي، كالغضب، أو الكآبة، أو الكراهية، أو لذة طاغية، أو نشوة زائفة، الأمر الذي يجعل العقل خاضعًا لهذه العطالة، عاجزاً عن القيام بمحاكمة سليمة وواعية.

علمت أيضًا أن التداعي، على الرغم من رقَّته الظاهرية والنشوة اللذيذة التي ترافقه، هو مجرَّد طرح لذكريات أو لمشاعر نفسية يستدعيها العقل أو يستحضرها إلى ساحة الشعور دون أن يُحدِث علاقة أو صلة بينها. وفي حال الانفعال النفسي، أي ما يُدعى بالعُصاب، الذي يطيح بفعالية المحاكمة والقدرة على التركيز ومعرفة الأسباب المؤدية إلى هذا الانفعال، يعجز العقل، الذي يتداعى إلى أغوار النفس العميقة والمشوَّشة، عن تحليل الأسباب التي أدت إلى فقدان التوازن.

في حالة التداعي إلى ذكريات الماضي، السعيدة أو الحزينة، المبهِجة أو المؤلمة، يكون العقل شبيهًا برحَّالة ينتقل من بلد إلى بلد آخر على نحوٍ يمر فيها مرور الكرام، دون دراسة أوضاعها وشؤونها وقضاياها، أو دون إحداث علاقة بين بلد وآخر، ليعرف سبب رحلته والغاية التي يرمي إلى تحقيقها. وهكذا، يتداعى العقل إلى ذكريات الماضي وأحداثه على نحو انتقالٍ من حالة نفسية إلى حالة نفسية أخرى، دون تركيز عقلي فاعل ومُحاكِم ومختبِر. إن هذا العقل يجد لذة في نشوة التداعي أو ألمًا في استدعاء ذكريات حزينة ماضية.

وإذ أدركت أن التداعي أو الذهول يشكِّلان حالتين نفسيتين، يكون العقل في إحداها منشغلًا بوضعه الانفعالي، الذي يخرج عن نطاق التفكير المركَّز القائم على التذكُّر الدقيق لحادثة معينة، ويكون في الأخرى سائحاً في ذكريات تُحدِثُ فيه نشوة نفسية رقيقة ولذيذة، أدركت أيضًا أن التأمل يتميَّز عنهما، بل يختلف عنهما اختلافًا جذريًّا في مضمون القيمة والمعنى. علمت أن التأمل تركيز عقلي على موضوع معيَّن، خارجيًّا كان أم داخليّاً؛ علمت أنه اختبار داخلي لموضوع أو لواقعة؛ علمت أنه فهم للتجربة في عمقها؛ علمت أنه معالجة عالم الخارج في عالم الداخل عبر سلسلة متصلة من العمليات العقلية والنفسية المنتقاة؛ علمت أنه صعود العقل إلى مستوى أعلى للمحاكمة والوعي والحكمة؛ علمت أنه طريق المعرفة المؤدي إلى الوحدة الداخلية في كيان قادر على إحداث تكامل بين عالم الطبيعة وعالم العقل، المتَّحدين في وحدة الهوية النفسية، وعالم الروح المتجاوز للثنائية والتعددية.

١١- المثالية المتسامية والمثالية الخيالية

وإذ بلغت هذا المستوى من معرفة حقيقة التأمل، علمت أن تحقيقه يتوطَّد في مثالية متسامية ومتجاوزة تشير إلى رفع الواقع كما هو إلى ما يجب أن يكون في المثال. وعلمت أن مثالية وجودي الواقعية تسمو، بفعل تأمل حقيقة الوجود

الواقعية والمغزى المضمون فيها والغاية النهائية، إلى المستوى الذي يجعلني أعاين جوهر كياني لإحداث توفيق بين المستوى الطبيعي الذي يرأسه العقل، والمستوى النفسي الذي يؤكِّد وحدة كياني، والمستوى الروحي الذي تتصالح فيه الثنائية والتعددية. وهكذا، أصبحت أعتبر التأمل مثاليةً تحقِّق سلَّم الوجود عبر مستويات تساعد العقل على تجاوز كل مستوى إلى مستوى أعلى في سلسلة الوجود الكبرى. ولما كانت المثالية الواقعية هي المرحلة الأولى التي تشير إلى تحقيقٍ مثابرٍ على مستوى المثالية المتسامية، فإنني وجَّهت فعاليتي، المضمونة في وحدة كياني، إلى تجاوز المثالية الخيالية التي يُحتمَل أن تكون حصيلة انفعال شديد، أو عجز عن التحقيق، أو طرح للإسقاطات العديدة التي يعاني منها الإنسان، أو استسلام لغيبيَّةٍ لا يكون للعقل فيها دور فعَّال، أو معاناة نفسية ناتجة عن خضوع لإشراطات عديدة تُلزِم الإنسان على الالتجاء إلى التعويضات الخاطئة أو الزائفة.

في هذا المنظور، علمت أن التأمل يعني تنشيط الطاقة الإنسانية الفاعلة في عقل منطقي ومُحاكِم، وفي كيان موحَّد في أبعاده ووظائفه النفسية، ليحيا في مثالية الحياة الواقعية والمتسامية إلى معرفة الحقيقة السامية وتحقيق الغاية العظمى للوجود.

-٥-

المحبَّة

تُعتبَر المحبة حجر الزاوية في المجتمع الإنساني وفي النطاق الروحي والكوني. وتتجلَّى حقيقة هذه المقولة في المبدأ الأخلاقي والوجداني والروحي الذي يوجِّه الإنسان إلى محبة الله أولًا ومحبة الآخَر ثانيًا. والحق أن المحبَّتين محبة واحدة من حيث الجوهر، لأنه يستحيل أن يحب الإنسان الله إن كان يكره أخاه الإنسان، كما يستحيل أن يحب الإنسان إن كان لا يحب الله الذي هو الكل في الكل أو الحضور الكلِّي الشامل.

يجدر بنا، قبل أن نتعمَّق في فهم موضوعنا هذا، أن نقيم علاقة:

١– بين المحبة والمعرفة

٢– بين المعرفة والفضيلة التي هي محبة المعرفة

٣– بين المعرفة والحرية

٤– بين المحبة والحب

أولاً: المحبة والمعرفة والفضيلة والحرية

لمَّا كانت المحبة طاقة كامنة في الإنسان، فإنها السبيل الوحيد إلى المعرفة. لذا، كانت المعرفة حصيلة محبة: محبة الإنسان للفهم والإدراك، ومحبته لسبر أغوار كيانه. وبقدر ما يحب الإنسان الموضوع يبدع فيه، أي يعرفه؛ وبقدر ما يحب الإنسان الخير يعرفه ويحققه؛ وبقدر ما يحب الانسجام

الجميل يبدعه؛ وبقدر ما يحب الصدق يطبِّقه؛ وبقدر ما يحب الله ينجذب إليه بإيمان قوي. لقد أحب الله العالم فأبدعه على نحوٍ هو أفضل العوالم الممكنة. وأحب الله الإنسان فأبدعه بأفضل تكوين، ودوَّن شريعته في كيانه. لذا، كان الله محبة، لأنه خير كامل، وجمال كامل، وحق كامل، ومعرفة كاملة، ونور كامل. وهكذا، تقودنا المحبة إلى المعرفة لتكون السبيل الذي يؤدي بأنفسنا إلى معرفة حقيقتها.

هكذا، تكون المعرفة وليدة محبة تحرِّر الإنسان من عبودية الجهل ليحيا في نطاق الفضيلة. ولا يمكن أن تتحقق الفضيلة دون معرفة. وهكذا، ينتهي الإنسان العتيق، إنسان الجهل، ويحيا *الإنسان الجديد*، إنسان المعرفة والخير. وهكذا، نعرف الحق لنتحرر. ألم يقل المسيح: «تعرفون الحق والحق يحرركم»؟

عندما أتأمل الحكمة السرمدية الماثلة في هذه العبارة، أعلم أن المعرفة تؤدي بنا إلى الحرية؛ هذا، لأن الحرية تعني انطلاق الإنسان في نطاق معرفة الحقيقة، حقيقة الله. إذ كلَّما عرف الإنسان أصبح حرًّا. فهي، إذن، سعي الإنسان إلى فهم نفسه ووجوده المادي والروحي. ونستطيع أن نتمثل الحرية بصفاتها الأدبية التالية:

- هي الخلاص من الجهل والانعتاق من إشراطات قيوده.
- أنا عبد إن كنت أجهل، وحر إن كنت أعرف.

تحرِّرنا المعرفة من الخوف، ومن المجهول، ومن الوهم. فالإنسان يخاف الموت لأنه يجهل ما يقع وراءه، فيعتبره مصيبة؛ ويخاف الغد الذي لا يزال زمانًا مجهولًا؛ ويخاف الله لأنه يجهله ويجهل محبته، فلا يسعى إلى معرفة حقيقة سرِّه؛ ويخاف المرض لأنه يجهل حقيقة الصحة؛ ويخاف الحياة لأنه يجهل سرَّها، فلا يسعى إلى تحقيق الطمأنينة النفسية والعقلية. أما الإنسان الذي يعرف أن الموت مجرَّد تحوُّل وانتقال فيتحرر من جهله هذا ولا يخاف. والإنسان الذي يعرف أن الغد، وإن كان زمانًا لم يحدث بعد في أرض الواقع، قائم فينا ومستمرٌّ

في حال غيابنا عنه أو في حال موتنا الظاهري يتحرَّر من جهله وخوفه. والإنسان الذي يتحرَّر من أنواع الخوف كلِّها يعرف أنه كان جاهلًا بالحقيقة. وعندئذٍ، يحب الحياة والموت.

تتأكد العلاقة الوطيدة بين المعرفة والفضيلة والمحبة؛ هذا، لأن الإنسان لا يسعى إلى المعرفة إن لم يكن يحب أن يعرف. ففي أعماقه محبة الكون، محبة الله، محبة الإنسان، محبة نفسه، محبة للحيوان والجماد. وتتجلَّى هذه المحبة في دافع قوي نحو المعرفة: معرفة الكون، معرفة الله، معرفة نفسه، معرفة وجوده، معرفة الحياة المركزة في الحيوان والجماد والنبات. وتتجلَّى هذه المحبة أيضًا في انجذاب قوي إلى المعرفة. إنه يحب أن يعرف، ويريد أن يعرف.

ثانيًا: المحبة والحب

تختلف ماهية المحبة عن الحب. فالحب بعض من المحبة لأنه يجسِّد جانبها السلبي أو المادي. ولكلِّ ظاهرة محبة جانبها المادي أو السلبي. لذا، يُعَدُّ الحب تعاطفًا أو تجاذبًا ماديًّا يخلو من الوعي والفضيلة.

تنشأ أهواء الإنسان وانفعالاته من الحب؛ لذا، تكون لاواعية من حيث إنها تخلو من الغاية والحكمة. فالحب العضوي انفعال جسدي يصدر عن الأنا المتملِّكة. وهو نزوة طارئة، وانقياد أعمى لانفعالٍ مجرَّدٍ من عقلانية واعية وسامية؛ ينقضي ويترك خلفه الألم السلبي الناتج عن لذة عابرة. فحب المال انفعال ينتج عن تعاطف الإنسان مع مركزية الأنا، ومع شهوة القوة المعبَّر عنها بالعنف، ومع القدرة المادية المعبَّر عنها بالتسلُّط، وحب الانتقام والكراهية، وانجذاب الإنسان إلى تلقائية الإنسان الأناني وانفعالها المجرد من الحقيقة والفضيلة والخير؛ وحبُّ التكبُّر والغطرسة دافع منحرف إلى رغبة وشهوة، وانجذاب إلى عظمة فارغة تنشأ من نقص في البنية العقلية والنفسية والأخلاقية؛ وحب الجسد انفعال مادي مجرَّد من قوى الفعل والحكمة. هكذا، يكون الحب، في حدِّه الأدنى، الجانب المادي والسلبي لماهية

المحبة. وكلُّ عملية حب لا تؤدي إلى محبة، ما لم ترافقها عملية معرفة ووعي. وباقتران الحب والمحبة تتحول الطاقة الجسدية إلى طاقة روحية تُكسِبُ الحب الجسدي صفته الكونية (الروحية). هكذا، تفعل المحبة في الإنسان لإشعال قوة الحياة الروحية فيه.

المحبة تعي، أما الحب فإنه لا يعي. والمحبة ثابتة ودائمة، أما الحب فإنه آنيٌّ ومؤقت. المحبة تدوم ولا تتحول إلى كره لأنها تعبير عن قوة الروح وعمقها، وعن ثبات الإنسان في إنسانية. هي ثبات الإنسان في نفسه وفي الآخر، وثباته في الله.

رأينا كيف تقف المحبة في مقابل الحب، وكيف تقف المعرفة أو محبة المعرفة في مقابل الجهل، وكيف تقف الحرية في مقابل العبودية، وكيف تقف الإرادة الواعية في مقابل التلقائية والانفعال. هكذا، تنتهي مركزية الأنا في المحبة.

هكذا، يؤدي بنا بحث المحبة إلى تأمل معالمها التطبيقية:

أولاً: المحبة تعني التضحية

ما هي التضحية؟ كيف أضحِّي من أجل سعادة غيري وخيره؟ وكيف أجعل من نفسي وسيلة وغاية لتحقيق المبدأ الأساسي للمحبة المطبَّقة في التضحية؟

إن أول حقل تتحقق فيه المحبة كتضحية هو أن أقدِّم مواهبي وملكاتي وقدراتي لبني الإنسان، لإسعادهم وتقديرهم واحترامهم؛ هذا، لأن مواهبي قد وُجِدَت لخدمة الآخرين. لذا، لا يعني وجودي شيئًا في هذا العالم إن لم أكن أحقق الغاية منه. ولما كان وجودي يعني تآلفي مع الآخرين والاتحاد معهم بالمحبة في جوهر واحد، فإن الغاية من وجودي معهم تتمثَّل في خدمتهم، وتكريمهم، والسعي إلى تحقيق مواهبهم، ورفع مستواهم الخلقي والمادي والروحي. لذا، كانت التضحية هي المحبة التي تبلغ درجة أعلى في سلَّم صعودها.

تتقدم الإنسانية وتتطور من خلال مَن يضحون من أجلها ولأجلها. فلو لم يوجد العلماء الذين ضحوا بأوقاتهم في سبيل المعرفة لما تقدمت الحياة في حقل تطورها، ولما توصلنا إلى معرفة أي معلومة عن أسرار الكون. ولو لم يوجد الحكماء، والمفكرون، والمشرِّعون الصالحون، والأنقياء والأخلاقيون الكبار والمثاليون، لما تعلَّم الإنسان شيئًا عن الناموس الأزلي المدوَّن في كيانه. والحق أن هؤلاء جميعهم ضحوا بحياتهم في سبيل الإنسانية. فهم لم يكتنزوا المال، ولم يتهافتوا على السلطة الظاهرية، ولم يسعوا وراء العظمة الفارغة، ولم يُستعبَدوا لرغباتهم وشهواتهم وأنانياتهم، بل هدفوا إلى خدمة الإنسانية. إنهم ضحوا. وكانت تضحيتهم عظيمة لأنها أنبل ما يستطيع الإنسان أن يعطي.

تبلغ هذه التضحية ذروتها عندما تدرك الإنسانية درسًا عظيمًا من تقديم المسيح ذاته تضحية للإنسانية. وإذا ما سألنا: ماذا تعني هذه التضحية؟ أجبنا: إنها تعني أن الإنسان الذي يرى نفسه في الآخرين يتحد معهم، ويكون واحدًا معهم، إذ يشعر بأنه يحمل أخطاءهم وصعوبات حياتهم وآلامها كلها. وإذ يضحي، فإنه يضحي من أجل الجميع وباسم الجميع. إنه يضحي باسم الإنسانية جمعاء لكي يتم الخلاص لها، من خلال الإنسان الواحد المضحي الذي يجمع البشرية كلَّها في كيانه ويمثِّلها خير تمثيل. تلك هي التضحية الحقيقية.

هكذا، تكون المحبة سرّاً. وسرُّها هذا هو أنها مبدأ يتعالى على كل مبدأ آخر. ولما كان الله هو المحبة، كانت المحبة أنبل ما في الكون. فالله – المحبة يجمع الكون كلَّه في كيانه دون تنافر أو انقسام أو تجزئة. لذا، تحب الأشياء والألوان بعضها بعضًا في الكيان الإلهي الذي هو المحبة.

المحبة هي الجاذبية في لغة العلم. هي جاذبية الخلية للخلية، والذرة للذرة، والجوهر للجوهر، والنوع للنوع، والإنسان للإنسان، والكواكب والنجوم بعضها لبعض؛ هي، إذن، تماسك الوجود، بعضه مع بعض، في كلٍّ متحد. ولولا هذا الملاط، ملاط المحبة – الجاذبية، لتنافرت العناصر، وانفرط عقد الوجود. لهذا

السبب، تتجذب موضوعات الوجود إلى بعضها في الألوهية – المحبة – الجاذبية – الكل في الكل.

المحبة هي الانسجام الديناميكي للقوى المتقابلة والمتكاملة؛ هذا، لأن الكون انسجام حي للقوى المتعارضة. ومن خلال مبدأ الانسجام – المحبة تتوافق الأجزاء، وينضم بعضها إلى بعض لتتَّحد في الكل.

المحبة هي القانون الكوني للوحدة في الكثرة؛ المحبة هي مبدأ التوافق الذي يسند كلَّ شيء؛ هي الاتكال المتبادل بين جميع الأجزاء، والاتصال الضمني لكلِّ الظاهرات، والتفاعل الكلِّي الذي يسري في التنوعات.

تعلِّمنا المحبة أن الإنسانية جامعة شاملة، وكذلك الإنسان؛ إنها تمتد على الكون المادي والروحي معًا، فتتجاوز مملكة المادة وتتسامى عليها، بل ترفعها وتُرَوْحِنُها. وشمول المحبة يجعل من البشرية جمعاء أسرة كبرى تنعم بالسلام في كنف الله، الحقيقة السامية والشاملة؛ فإذا الناس جميعًا أخوة لأنهم يجتمعون في الحقيقة الواحدة التي هي الله. وكل إنسان وجميع الناس إنسان واحد وصور كونية متعددة من الناحية الشكلية فقط.

يقوم مبدأ المحبة على أن شمولها العالمي والإنساني الجامع إنما يرتكز على أن جوهرها يعني أن جميع الناس، على اختلاف أعراقهم، وأنواعهم، وألوانهم، وأممهم، يؤلِّفون جسدًا واحدًا، مادة واحدة، وروحًا واحدة، في صورية مادية واحدة لا تتناقض في ذاتها.

إذ أتأمل عمق المحبة، أتساءل: كيف تكون المحبة وسيلة لتحقيق إنسان مثالي وروحي في جوهره وكيانه وغاية بذاتها؟

- المحبة توجِّه الفرد إلى رؤية نفسه في غيره، إلى معرفة نفسه في الآخر، إلى نفاذ فرديته في غيره وانصهاره فيه، وإلى الشعور بوجود الأفراد في جامعة تسمى «الإنسان» – صورة الله الجامعة.

- المحبة سبيل يسهّل الانتقال من الفردية إلى الشخصية، من الأنانية إلى الأنانة، أي إلى معرفة الإنسان لنفسه، ومن المادة إلى الروح.
- المحبة هي الشعور بالكثرة في الوحدة، بالأفراد في الإنسان، وبالأجزاء في الكل.
- المحبة هي وجود شامل ترى فيه الأنا ذاتها في الكل – الواحد.
- المحبة هي لقاء الإنسان مع الإنسان في نطاق الحياة الروحية.
- المحبة هي نور الإنسان وسلَّمه المُعَدُّ لارتقاء الوحدانية الكونية، وتحقيق الإنسانية الشاملة في الحقيقة الإلهية السامية والكلِّية.

ثانيًا: المحبة تعني المسؤولية

من هو المسؤول في المجتمع؟ ومن يتحمل أكبر قدر من المسؤولية؟

هو الإنسان المسؤول الذي يتحمَّل ويضحي لسبب هو أن محبته عميقة في صدره. إنه مسؤول عن الآخرين، وذلك لأنه يحبُّهم وفق ناموس المحبة. إنه مسؤول عن أفعاله تجاه الآخرين. لذا، يجعل هذا الإنسان من الحق طريقًا له ليكون مثالًا حيًّا لغيره. إنه مسؤول عن كل تصرف أو سلوك يصدر عنه لأنه يؤذي الآخرين إن كان سلوكه لا يليق بمسؤوليته ولا يتوافق معها.

فالمحب وفق مبدأ المحبة مسؤول لأنه لا يقيم فرقًا بينه وبين الآخرين، ولا يرضى لذاته ما لا يرضاه للآخرين، ولا يتعاظم على الآخرين ولا يتكبر عليهم؛ وهو لا يرغب في السيطرة على الآخرين، وذلك لأنه يتساوى معهم في الجوهر الإنساني؛ وإن هو تقدَّم عليهم فلكي يخدمهم. ألم يقل المسيح: «من أراد أن يكون فيكم رئيسًا فليكن خادمًا»؟ هكذا، يبذل الإنسان ذاته حتى درجة التضحية لأنه يحب محبة فائقة.

ثالثاً: المحبة تعني القيام بالواجب

لا يؤدي واجبه إلَّا مَن يشعر بالمسؤولية، وأعني المحب المسؤول. فالمتكبر، والحاقد، والمنفعل، والمهمل، والمستغل، واللَّامبالي، والأناني إنسان يهمل واجبه لاعتقاده أن من واجب غيره أن يخدمه، أو أن يحبَّه وفق مفهوم الحب، أو يبجِّله بما يتناسب مع غطرسته. أما المتواضع المحب، الذي يتجاوز أنانيته بفعل المحبة، ويسمو على ذاته، فإنه يقدِّم نفسه للآخرين ويؤدي واجبه نحوهم. وهكذا، يتمثل واجب الإنسان في خدمة الآخرين لأنه يحبهم. والمحب، كما يعلِّمنا المسيح، يَخدم ولا يُخدم. المحب يقوم بواجبه دون أن يطالب بحق.

رابعًا: المحبة تعني العطاء

مَن لا يضحي لا يعطي. والعظيم هو مَن يعطي. أما الناجح فهو مَن يأخذ. العظيم بنفسه، والمتأمل في أعماقه، يبذل ويعطي، وذلك لأن النعمة أو الموهبة التي منحها الله للإنسان تُمنَح وتُعطى دون مقابل. ولا يكون العطاء بالمال وحده، وذلك لأنه أدنى درجة عطاء. لقد أعطى الحكماء الكثير، مع أنهم لم يوزعوا أموالاً أو غنائم، لسبب أصيل هو أنهم لم يأخذوا مالاً من أحد؛ وأعطى العلماء، والحكماء، والمصلحون، والأخلاقيون الكثير، مع أنهم لم يوزعوا الأموال. هكذا، نعلم أن العطاء ينبع من القلب والعقل معًا؛ وبالتالي، لا يعطي إلَّا القلب الممتلئ بالمحبة والعقل الممتلئ بالحكمة. وهكذا، قال المسيح: «مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ».

خامساً: المحبة تعني اللَّاعنف

اللَّاعنف يعني التسامح، والتحمل، والشعور الكامل مع الغير؛ ولا يطبِّق اللَّاعنف إلا مَن يحب. أما الذي يكيد لغيره، ويحاول القضاء عليه، أو يعمل على وضع حدٍّ لإنسانيته، أو يحاول الانتصار عليه بأي وسيلة كانت، فهو إنسان عنيف وظالم، مهما كان يدعي بأنه يطبق مبدأ المحبة. فاللَّاعنف هو العطف، والاحتمال، والشعور العميق بوجود الآخرين، ومساعدتهم في أعمالهم،

وتوجيههم وإرشادهم بأسلوب عادل ورقيق. ويتمثل اللَّاعنف بالسعي إلى معرفة الحقيقة، وفي هذا المجال، قال بولس الرسول: «إن كنت أتكلَّم بلغة الملائكة وليس لي محبة، فلست شيئاً».

سادساً: المحبة تعني احترام الشخصية الإنسانية

لما كان الإنسان هو المثال المعبِّر عن الإنسانية بكاملها، فإن احترامه واجب كوني. ولا غرو أن احترام شخصية الإنسان يعني تقدير الإنسان، وتقدير الحضور الإلهي في كيانه. لذا، يستمد مبدأ احترام الإنسان وجوده من الوجود الإنساني ذاته، بغضِّ النظر عن نوع العمل، أو المركز الاجتماعي أو الفئوي. ولو أن الإنسان سعى إلى احترام الشخصية الإنسانية، بكل أشكالها وتنوُّع مجتمعاتها، لتجنَّب المشكلات والصعوبات التي اعترضته، ومازالت تعترضه، وأدَّت إلى القلاقل والاضطرابات التي عمَّت البشرية، ولكانت هذه البشرية تنعم بالرفاه والسعادة على كل المستويات.

سابعاً: المحبة تعني محبة الوجود، المادي والروحي

عندما يبلغ الإنسان نقطة أوميغا في المحبة، وأعني ذروة المحبة، حيث يُستقطَب الكل، يتعاطف مع الوجود تعاطفًا كليًّا. وعندئذٍ، يشاهَد فيه كلُّ خير، وكلُّ صلاح، وكلُّ عظمة، وكلُّ تسامٍ وتعالٍ. ويجد في كلِّ كائن حي، حيوانًا كان أم نباتاً أم طيراً، وفي كلِّ ظاهرة مادية صدًى لنفسه أو صورة منعكسة لها. وإذ يبلغ هذا المستوى، يدرك أنه يحب الحيوان والنبات والمادة، ويشعر بانسجام وتآلف سرَّاني معها. وعندئذٍ، يعود إلى طبيعته المادية والروحية التي تحتِّم عليه محبة كل شيء في الحياة والانجذاب إلى العالم الأعلى والأسمى. إنه يعود إلى الفردوس الذي فقده.

لقد أحب الله العالم، فأبدعه بكماله وتمامه. وفي هذه المحبة يحقق الإنسان الفردوس، ويحيا في سكينة الحياة الروحية.

ثامناً: المحبة تعني نهاية الشر

تتحقق المحبة على صعيدين: أولهما هو الصعيد الإنساني، وثانيهما هو الصعيد الإنساني - الإلهي.

على الصعيد الإنساني، ينجذب الإنسان إلى الإنسان ويحبه. وبفعل هذه المحبة، تنتهي الشرور الاجتماعية، كالكبرياء، وحب الذات، والأنانية، والاستغلال، والبغض، والاستعباد، والتمييز العرقي والطبقي والجنسي. وعلى الصعيد الإنساني - الإلهي، ينجذب الإنسان إلى الله والوعي الكوني، بكامل عقله وقلبه. وفي هذا الانجذاب، يتحقق الوجدان والإيمان الناتجين عن المعرفة والفضيلة والمحبة.

هكذا، نرى أن المحبة هي حكمة الكون المادي والروحي ومثاله. وبتحقيقها، يحيا الإنسان في عالم الحقيقة والخير، وفي عالم الإيجاب، ويضمحل الشر، أي السلب، ويحيا الإنسان في الفردوس الكائن في كيانه، ويعود إلى عليائه، إلى نقائه وطهره، إلى النعمة والمجد، ويحيا الإنسان في كنف المحبة محققًا إرادة الله على الأرض، لتتحقق مشيئته «كما في السماء كذلك على الأرض».

-٦-

في ثقافة الحوار والتسامح ومبدأ الأنسنة

يتمثل هذا البحث في تأمُّل ودراسة المقولتين التاليتين بوعي وحكمة:

١- مفهوم الحكم والسلطة

٢- ثقافة الحوار والتسامح

أولاً: مفهوم الحكم والسلطة

عندما تُقحَم سياسةُ التسلُّط أو شهوةُ التحكُّم في إدارة الأمة على نحو ما تقتضي ضرورة تطبيق القيم الروحية والعقلية المستنيرة والمفاهيم السامية في نطاق سلطة تتميَّز بالحكمة والوعي، تتراجع المبادئ الروحية الماثلة في إيمان يعتمد على تفسير الشريعة، بظاهرها وباطنها، وتتدحر القيم والمفاهيم الأخلاقية والاجتماعية التي تتأسس عليها الأمة وتحياها وتحققها في ظل سلطة أو حكم يسعى إلى تطبيق المبدأ الإلهي في عالم الأرض لكي يستعيد الإنسان تأسيس الفردوس الذي فقده يوم انحرف عن سبيل معرفة الحقيقة والحفاظ عليها.

في هذا النطاق الروحي العميق والواسع، أود، بل أحب، أن أتحدث عن ثقافة الحوار والتسامح التي هي أعظم وأجل وأسمى الحروب المعلنة على التحكُّم، والتسلُّط، والجهل، والباطل الذي يهدف إلى إلغاء حقيقة الحياة الروحية وإلغاء الآخر.

ثانياً: ثقافة الحوار والتسامح

يتمثل هذا البحث في إقامة تأليف بين المقولات الخمس التالية:

١- ثقافة الحوار بوصفها السبيل الأمثل المؤدي إلى التفاهم وحلّ النزاعات.

٢- ثقافة التسامح بوصفها تجاوزًا للإدانة والإدانة المضادة.

٣- الموقف السلبي المجسَّد بالتفسير الحرفي والفهم الظاهري للمبادئ الإنسانية والروحية.

٤- المبادئ التي تتضمَّن فيها حقيقة ثقافة الحوار والتسامح.

٥- الأنسنة بوصفها شمول الإنسانية.

أولاً: الحوار بوصفه السبيل المؤدي إلى التفاهم وحلّ النزاعات

يتمثل الحوار، الذي يتحقق بين الإنسان ونفسه على مستوى تبرير اليقين الذي يعتمده لتأسيس معتقده أو وجهة نظره أو محاكمته، أولاً، وبينه وبين الآخر، أيًّا كان هذا الآخر، على مستوى الاعتراف، والقبول به، وفهم موقفه الفكري أو العقائدي، ثانياً، في ضرورة تأسيس بنية عقلية منفتحة، مكوِّنة وواعية، تصلح لإجراء تفاهم معمَّق بين أبناء وبنات الناس بهدف إرساء قاعدة يتوطَّد عليها صرح مجتمع إنساني تتكامل أبعاده ومستوياته العديدة والمتنوعة في الحكمة، والتسامح، والسلام، والطمأنينة، والازدهار، ويتجاوز الأُطُر المحدودة والمناهج أحادية البعد التي أشرطت العقل والنفس والروح، وحالت دون تطوير الوجود الإنساني والسموّ به إلى مستوى مثالي، وأدَّت إلى عدم تحقيق المغزى الروحي المضمون والكامن في الوجود على مستوى الواقع الطبيعي والإنساني والكوني، وإلى إسقاط المعنى والقيمة المتأصِّلين في جوهر الحياة في نطاق شرقنا العربي.

في هذا المنظور، أسعى إلى تقريب وجهات النظر العديدة في إطار التأليف الحواري القائم على أُسُس عقلية ونفسية وروحية، سامية وواعية، وعلى معرفة الطريق المؤدية إلى التلاقي مع الآخر والتفاهم معه على أساس الاعتراف بالتنوُّع المتأصِّل في جوهر المبادئ الإنسانية، والمبادئ الطبيعية، والمبادئ الكونية التي أبدعها الوعي الكوني الماثل في الألوهة، وهدف إلى تحقيق تأليف بينها يشير إلى تكاملها وتآلفها في حقيقة واحدة سامية. والحق أن هذا التأليف واجب مُلقى على عاتق الإنسان... هو واجب يدعوه إلى توحيد نطاقات ومستويات المبادئ الإنسانية والروحية.

لمَّا كان الحوار يتألق في تكامل المواقف الفكرية والنفسية والروحية التي تشير، بدورها، إلى تنوُّع المبادئ وتوافقها في انسجام يكمن في وحدة تأليفية تجد أصولها في عمق الوعي والحكمة والمحبة، فإني أسعى جاهدًا لتحقيق ما يوجد في عمق كياني، على نحو كمون، لأعاين وأحيا الوحدة الجوهرية التي تجمع الإنسانية كلَّها في حقيقة واحدة متنوعة في ظاهرها وفي مستويات تعبيرها، ومتكاملة في جوهر رموزها وتمثُّلاتها وأسرارها.

في هذا المنظور، استطعت أن أتمثَّل الحضارات والثقافات والأديان، وتمكنت من تأليفها في تكاملٍ توحيديٍّ يُبدع مني إنساناً منسجماً في كياني، ومتوازنًا في صميمي، ومتفهِّماً للتنوعات الحضارية والثقافية والروحية، ومحبًّا للإنسانية جمعاء.

علمتُ أنني أمثل ثقافة عقلية وروحية شاملة ومتنوِّعة في ظاهرها، متكاملة ومتآلفة في جوهرها، تحيا في داخلي وتُمِدُّني بقوة الحياة الواعية وتوازن الشخصية الحكيمة. وحدستُ ببصيرتي ما تشتمل عليه حديقة كياني من مبادئ وقيم ومفاهيم لا تتحقق في وحدة، ولا تتكامل في انسجام، ما لم أكن قادرًا على إبداع تأليف بينها يتناغم في نطاق تنوُّعات الروعة التي تنضوي تحت كنف

الحقيقة الواحدة وبهاء اللقاء المضيء بألق الحب. والحق أن العقل، الذي يزدهي بجمال التنوع، يتألق في غبطة النور وسموِّ الروح.

في هذا السياق، أدركت أن المفهوم السامي والمغزى العميق يتضمنان في الوجود الإنساني، ويتجلَّيان في المقولات الثلاث التالية:

- **أولاً:** يشير واقع الحضارات والثقافات والأديان إلى تنوُّع ظاهري وتوافق أو تكامل أو انسجام يتألق في حقيقة واحدة.
- **ثانياً:** يشير واقع وجودنا، على مستوى كوكب الأرض، إلى تنوُّع ظاهري ووحدة جوهرية كامنة.
- **ثالثاً:** تشير الحكمة السامية المطلقة إلى أن التنوُّع قانون أو مبدأ إنساني واجتماعي، وقانون أو مبدأ طبيعي، وقانون أو مبدأ كوني.

إذ بلغتُ هذا المستوى من التفكير الواعي، المجرَّد من الانفعال السلبي وضيق الأفق الفكري، سألت نفسي: كيف أجعل من الحوار سبيلاً إلى تلاقي التنوعات المبدئية، ووجهات النظر العديدة والمختلفة في ظاهر التعبير؟ كيف تؤدي المحبة والوعي والحكمة إلى لقاء الإنسان مع الإنسان، وتسعى إلى تحقيق الآخَر في الآخَر، ليكون كلُّ إنسان صورة حقيقية منعكسة لكلِّ إنسان في مرآة الوجود؟ كيف تلتقي الصياغات والتعبيرات المتنوعة لتشكل لوحة الوجود الواحدة؟

علمتُ أن الإنسان الحكيم يبحث في المبادئ الإنسانية والطبيعية والكونية، ساعيًا إلى تمثُّلها وتحقيقها في كيانه، وتأليفها في تكامل، وهادفًا إلى تجاوز النزاعات الناجمة عن الجهل بالآخر وبحقيقة الوجود والغاية من الحياة. وبالمثل، علمتُ أن الإنسان العاقل يبحث في الظواهر ليعرف الأسباب والقوانين. أما الإنسان العادي فإنه يتحدث عن الأشخاص ليضيف إلى فردية وجوده صفة يحتمل أن تكون تعويضًا زائفًا. أما الإنسان الواعي لحقيقة وجوده فإنه يبحث في المبادئ التي تسمو به إلى نطاق الحياة الروحية.

في سبيل تحقيق الحوار الواعي، أودُّ أن أورد بعض المبادئ التي تدعو إلى التفاهم، وتؤدي إلى اللقاء ضمن نطاق الاعتراف الكامل بالآخر والقبول الكامل به:

١- المحبة، التي تتجاوز مركزية الأنا الفردية ومركزية الأنا التجمُّعية، هي السبيل الأول والأهم لتحقيق الحوار، والأسلوب الأفضل الذي يؤدي إلى التسامح العقلي والروحي الذي يشير، بدوره، إلى الإصغاء التام والهادئ والرصين، وإلى الفهم الكامل لما يقدِّمه الآخر أو يعرضه. في المحبة، أتأمل ما يقوله الآخر، أو ما يؤمن به، أو ما يعتقده، على نحوٍ يجعلني ألتقي معه في أكثر من رأي أو فكرة أو مبدأ ضمن نطاق الوعي والحكمة. لذا، كانت محبَّتي للآخر ومحبَّتي للحقيقة تمثلان الطريق الذي أسلكه باتجاه الوعي الكوني الماثل في الألوهة؛ هذا، لأن الحقيقة السامية لا تعترف إلَّا بمن كان محبًّا للآخر، وذلك لسبب جوهري يشير إلى أن محبَّتي للحقيقة تتمثل في محبَّتي للآخر.

٢- العقل المنفتح والقلب المنفتح اللَّذان يعتمدان الحوار الواعي غير المتحيِّز، ويتجاوزان الانفعالات السلبية والإشراطات التي تقيِّد العقل المكوَّن والمحتجَز داخل قوقعة الأنا المغلقة والقلب المغلَّف بنسيج الحب الانفعالي الملازم لعنصرية الأنا التجمُّعية المتصلِّبة.

٣- العقل المكوِّن الذي يعيد النظر في موروثات الماضي العمودية التي ترفض التطور الأفقي، ويتحرَّر من القيود التي فرضتْها التفاسير الحرفية والاجتهادات المتصلِّبة والمتطرفة والراسخة في مكانها، فيتجاوزها إلى عقلانية روحية تتأمل الرمز لتعاين أو تستغرق عمق باطن أو جوهر المعنى المضمون والكامن. هكذا، يتبنَّى العقل المكوِّن ثقافة الحوار والتسامح، ويتجاوز أحداث الماضي.

٤- الاعتراف بأن جميع الحضارات والثقافات والمبادئ الروحية سُبُل أو روافد تصبُّ في نهر الإنسانية الواسع والعميق الذي يُعَدُّ كتاب الأبدية وسجلّ تاريخ الروح على الأرض.

٥- الإرشاد الحكيم الذي يشير إلى استبعاد توطيد أُسُس القطب الواحد في نطاق معرفة الحقيقة المطلقة، أو امتلاكها، أو احتكارها، وحرمان الآخر من هذه المعرفة.

٦- السعي إلى تحقيق حوار يقوم على عقلانية روحية واعية يتميَّز بها العرفانيون الذين ينتمون إلى جميع الفئات المستنيرة.

٧- كما أن الناس يختلفون فيما بينهم بصدد القضايا الروحية، كذلك يختلفون بصدد القضايا الأخرى، اقتصادية كانت أم اجتماعية أم سياسية أم فكرية إلخ. فما من قضية إلَّا ويدور حولها الاختلاف، دون أن يتحول إلى خلاف. والحق أن الاختلاف يعتبر واقعاً طبيعيّاً يعود، بأصله، إلى وجود التنوُّع، ولا يُحَلُّ إلَّا بالحوار الذي يقبل الآخر ويعترف به على نحو كامل، والتسامح المتجاوز لوضع سابق.

٨- في هذا المنظور، يتركز اهتمام الحكماء على القضايا الإنسانية التي، وقد بلغت ذروة التفاهم بين الفئات المختلفة، تصبح الغاية المثلى التي أرادتها، وتريدها، الحقيقة السامية المطلقة الماثلة في الألوهة. وهكذا، يتجنب الحكماء البحث في قضية الوجود قبل الموت وبعده، لتبقى قضية تعود لنطاق الحقيقة السامية المطلقة.

٩- أخيرًا، أسمح لنفسي، وقد بلغت هذا المستوى من البحث، أن أتصوَّر ما يُحتمَل أن تعلنه الحقيقة الإلهية للناس الذين أسقطو ثقافة الحوار والتسامح أو تغاضوا عنه، فأقول: «يا أبناء الأرض، لا تتناحروا بشأن قضية الحياة الأرضية المؤقتة وقضية الآخرة، لأنني أطلب منكم، كما دعوتكم منذ الأزل وإلى الأبد، أن تنبذوا خلافاتكم ونزاعاتكم، وتدركوا

أسباب اختلافاتكم، لكي تتكاملوا في نطاق الحقيقة، الواحدة في باطنها والمتنوعة في ظاهرها. لقد جعلتم من اختلافاتكم الظاهرية خلافات مستعصية على الحل، ورفضتم تعديلها أو تجاوزها. لذا، أطلب منكم أن تحبوا بعضكم بعضًا، وتتعارفوا بوعي، وتتعاونوا بصدق، لكي تستعيدوا الفردوس الذي فقدتموه بعد تفرُّقكم، الذي أدَّى إلى إثارة النزاع والصراع، وبعد اختلاق وابتداع الانقسامات المذهبية، وتستعيضوا عنه بفردوس أرضي تحقِّقون فيه محبَّتكم واحترامكم بعضكم لبعض، وتغتبطون ببركتي ورعايتي اللَّتين أمنحهما لكم. تلك هي إرادتي التي تؤكد على توصيتكم بأن تكونوا محبين بعضكم لبعض، ومسؤولين تجاه بعضكم بعضًا، ونابذين للإدانات المتبادلة بينكم، ورافضين للاتهامات العشوائية التي تؤدي إلى النزاع والصراع».

ثانياً: ثقافة التسامح بوصفها تجاوزًا للإدانة والإدانة المضادة

دخلت إلى عمق كياني باحثًا عن حقيقة مبدئي وأصالة رأيي ومعتقدي. وجدتُ تنوعاً من الآراء ووجهات النظر، وحدست وجود وحدة إنسانية شاملة. أدركت أن عقلي تأليف لثقافات ومعارف عديدة ومتنوعة تشكل كياني وتكوِّن شخصيتي.

أدركتُ أني أمثِّل ثقافة إنسانية متنوعة في ظاهرها، متكاملة في باطنها أو في مضمونها، وتتألق في وسطها ثقافتي العربية الخاصة. علمت أن الثقافات، والحضارات، والأديان، والمبادئ الروحية تحيا في داخلي على نحوٍ متسامح ومتعاطف، وتستغرق كياني. وعلمت أيضًا أن وجودي لا يتميَّز بالقيمة والمعنى إن كان كياني يخلو من لقاء الثقافات، والحضارات، والمعارف، والقيم الأخلاقية والروحية التي تتآلف في تفاهُم متسامح، وأن علومي ومعارفي ومبادئي لا تتشكل في معزل عن هذا اللقاء المتَّسم بالتفاعل والحوار المتسامح والحافل بالموقف الفكري الإيجابي.

أدركت أن التاريخ الإنساني، الذي يتصف بثقافة الحوار والتسامح، يتمثل بنهر الإنسانية الذي يحمل، عبر روافده، تراث الحضارة الإنسانية حيث تلتقي الثقافات وتتَّجه إلى توطيد الأساس الشامل لمستقبل أكثر إنسانية، تماماً كما تتجه إلى تفاعل العقول البشرية، على نحوٍ إيجابي، في نطاق الوعي والحرية والمعرفة، وتتكامل في نطاق إنسانية متسامحة تتألق بالفهم الحقيقي لمبدئي ومبدأ الآخر.

بدأت، وأنا ممتلئ بالغبطة في داخلي، ومستغرق في تأملٍ عقليٍّ واعٍ، بدراسة وجهات النظر المتنوعة، مذهبية كانت أم اجتماعية أم علمية أم عقائدية أم روحية أم غير ذلك. أدركت أن الانتماء المتطرف والمنفعل يُحتمَل ألا يساعد على تحقيق ثقافتي الإنسانية المتسامحة. وبالتالي، يحتمل ألَّا يُمِدَّني بالإرادة الحرَّة المنعتقة من كلِّ إشراط، وبالقدرة على تبنِّي ثقافة إيجابية منفتحة إزاء الآخر. وفي القرار الواعي الذي اتخذته، أصبحتُ صديقاً مخلصًا، ودودًا، محبًّا ومتفهمًا، لجميع المبادئ الروحية والثقافية والحضارية، دون أن أضيِّق على نفسي في نطاق وجهة نظر معينة؛ إذ يُحتمل أن تُلزِمني على اتخاذ موقف عدائي، أو نزاعي، أو صِدامي، مع أنصار أو أتباع وجهة نظر أخرى. وفي هذا المنظور، أدركت أن مثالية وجودي تسعى إلى التحقيق في نطاق الثقافة الإنسانية المتسامحة.

تيقنت أن الغاية الأسمى والمغزى الحقيقي لوجودي يكمنان في الوعي الذي يشمل المعرفة، والتقييم الوجداني، والمحاكمة المنطقية السليمة. وفي سبيل تحقيق هذه الغاية، اكتشفت طريقي، واتخذت قراري الماثل في إرادتي الحرة التي أشارت، ولا تزال تشير، إلى عملية البحث عن الحقيقة في إنسانية أبعادها ونطاقاتها، وفي السعي إلى معرفة جوهرها عبر ثقافة منفتحة ومتسامحة.

في هذا النطاق الفكري الإيجابي والمتسامح، جعلت من عقلي حديقة أزرع فيها أنواع العلوم، والمعارف، والمبادئ، والثقافات التي كوَّنت، ومازالت تكوِّن مني إنسانًا متميزًا بثقافة التسامح، يرى الإنسانية كلَّها في كيانه، ويعاين الكون

كلَّه في داخله، ويسعى إلى تحقيق فضيلة أخلاقية وعقلانية، إيجابية ومتسامحة، ويتميَّز بوعي يرشدني إلى محبة الإنسان دون النظر إلى لونه، أو عرقه، أو وطنه، أو مذهبه، أو أسلوب تفكيره، أو وجهة نظره، أو علمه، أو عمله. وهكذا، جمعت المعارف المتنوعة في نسيج واحد متعدد ألوان خيوط الحياكة.

في هذا المنظور، أعترف بوجود إنسانية واحدة تنسحب، في مجمل كياناتها، على جميع الشعوب عبر تعدُّد أنواعها، وأعراقها، وألوانها، وعقائدها، وثقافاتها، وعلومها. لذا، توجد إنسانية واحدة شاملة، هي الأنسنة، تتنوع في مستويات صياغة التعبير عن قيمها ومفاهيمها المتكاملة في واقع وجودها.

هكذا، تتنوَّع الحضارات والثقافات والمبادئ الروحية في نطاق إنساني متكامل. وهكذا، يعترف الإنسان الواعي والمتكامل في كيانه، والمجتمع المتكامل في ثقافته المتسامحة، بالتكامل الكامن في كيان المجتمعات الإنسانية الأخرى، المعبَّر عنه بالتكاملية الإنسانية الضمنية، ولقاء الشعوب والمجتمعات في وجودهم بعضهم مع بعض، بحيث يلتقي الآخر مع الآخر في عالم تسوده مبادئ التفاهم والتسامح والتفاعل.

في هذا النطاق الفكري الإيجابي والمنفتح والمتسامح، تعمَّقت في دراسة المناهج الفلسفية باحثًا عن الحقيقة. وبالمثل، تعمَّقت في دراسة مدارس علم النفس المتنوعة، ساعيًا إلى فهم نفسي خاصة وإلى فهم ديناميكية النفس الإنسانية عامة، وهادفًا إلى بلوغ التكامل والتوازن في داخلي. وفي السياق ذاته، تعمَّقت في دراسة الأديان لأكتشف الحكمة المنطوية فيها، تمامًا كما تعمَّقت في دراسة المبادئ العرفانية الرائعة لكي أتمثَّلها في واقع حياتي. وأخيراً، درست العلوم عامة لأفهم حقيقة القوانين الطبيعية والإنسانية والكونية، وأدرك سرَّ المعجزة الكامنة في جوهر الوجود. وفي هذه الدراسة المعمَّقة والموسَّعة، علمت أني أسعى إلى تمثُّل ثقافة متسامحة تتيح لي فرصة الاطلاع على مبادئ الآخرين وفهمها واحترامها. هكذا،

أدخلت الآخر إلى دائرة وعيي، وهدفت إلى تحقيق المشاركة الفاعلة بينه وبيني، وبناء جسر معرفيٍّ بيننا.

أدركت حقيقة مبدأ التسامح، وعلمت أنه الأساس أو القاعدة التي يتوطَّد عليها صرح الاعتراف الكامل والقبول الكامل بالآخر. والحق أن الآخر يشكل عنصرًا مكوِّنًا ورئيسًا في بناء شخصيتي داخل نطاق العلوم والمبادئ والمعارف المتنوعة التي يُمِدُّني الآخر بها. وفي هذا المنظور، علمت أن جميع الحكماء، والمبدعين، والمفكرين المثاليين، والعلماء الإنسانيين قاموا بدور أساسي في تكوين معرفتي وحكمتي وفضيلتي. لذا، يُعتبَر الآخر، الذي حقَّق إنسانيته وروحانية معرفته وكونية وجوده، آخر جعلني على ما أنا عليه من معرفة، وفضيلة، وأخلاق، وعلم، وحكمة، وخير.

هكذا، تكون إيجابية الشعور والتفكير والتقدير لأهمية وجود الآخر المتميِّز بمبادئ ثقافة الحوار والتسامح في وجودي. وهكذا، يكون الإنسان الموهوب بثقافة الحوار والتسامح صديقًا لنفسه ولغيره.

بالإضافة إلى ما ذكرت، أعتقد أن المبدأ الذي ترتكز عليه ثقافة الحوار والتسامح يتحقق على مستويين:

١- مستوى أخلاقي أحقق فيه سموَّ كياني الإنساني، الممتلئ بالمحبة والتعاطف والمشاركة، وأتجاوز الموقف السلبي الصادر عن الآخر.

٢- مستوى عقلي أحقِّق فيه حكمة منطقي وصدق محاكمتي التي تقضي بفهم الآخر، أي فهم موقفه الفكري، ووجهة نظره ومبدئه فهمًا صحيحًا، لسبب أصيل يدعوني إلى احترام الاختلاف الظاهري، والاعتراف بالتنوُّع الذي يُغني الوضع الإنساني في كلِّ مجال من مجالات المعرفة، وفي كلِّ حالة تتوثَّق فيها الروابط والعلاقات الإنسانية المتسامحة.

يشير هذا المستوى إلى تجرُّد ثقافة الحوار والتسامح عن الإدانة والإدانة المضادة. وبالفعل، تُعتبَر ثقافة الحوار والتسامح تفاعلًا حقيقيًّا بين الإنسان والإنسان وبين المجتمعات البشرية الراقية. وتتألق هذه الثقافة المتسامحة في احترام الإنسان عبر امتداد كيانه، وتعميقه، وتوسيعه باتجاه الآخر. وإذا كان الآخر هو مَن يساعدني على تثقيف إنسانيتي وتحقيقها بموهبة معيَّنة، فإن إنسان ثقافة الحوار والتسامح كائن يتجاوز الإدانة والإدانة المضادة، ويعمِّق إنسانيته ويوسِّعها إلى الآخر المتميِّز بإنسانية مماثلة.

يؤلمني أن أشاهد الإشراطات والعوائق العديدة التي تحُول دون تحقيق ثقافة الحوار والتسامح. ومن جانبي، أعتقد أنها تنضوي تحت عوائق مأساوية ثلاثة:

١- ردود الأفعال الانفعالية والسلبية التي يُحتمَل أن تؤدي إلى الإدانة، وبالتَّالي، إلى التطرف والتعصب والعنف.

٢- القناع الذي يحُول دون رؤية الحقيقة، فيؤدي إلى عمى فكري، ويرفض فهم الآخر والاعتراف به.

٣- الموقف السلبي المجسَّد بالتفسير الحرفي والنفعي والفهم الظاهري والضيِّق للمبادئ الإنسانية والروحية.

١- ردود الأفعال الانفعالية التي يُحتمَل أن تؤدي إلى الإدانة والإدانة المضادة:

أود أن أبدأ بمعالجة موضوع العنف، أولاً، وموضوع التطرف، ثانياً. ومن جانبي، أعتقد أن العنف ليس نزعة أو صفة أصيلة وملازمة لكيان الإنسان؛ هذا، لأن الإنسان، في جوهره، كائن عاقل يسعى إلى توطيد دعائم عقلانيَّته المتسامية إلى المزيد من الوعي والحكمة والمنطق. وهكذا، يكون العنف شديداً وخطيرًا بقدر ما يخرج الإنسان عن نطاق العقل، وعن نطاق

الحكمة والوعي والمنطق المتماسك في أحكامه. لذا، كان العنف مجرَّد انفعال سلبي مكتسَب، ضاغط ومتراكم في اللَّاوعي، يطيح بملَكة العقل والوعي والحق.

إن العنف لا يتصل بمفهوم القوة؛ هذا، لأن القوة تعني التوازن، أو التماسك، أو التكامل الداخلي، في كيان الإنسان ونفسه. وعلى سبيل المثال، يُعتبَر الإنسانُ المحبُّ قويًّا في محبَّته، والإنسانُ الكريمُ قويّاً في كرمه، والإنسانُ المضحِّي قويًّا في تضحيته، والإنسانُ العارفُ قويًّا في معرفته، والإنسانُ المتواضعُ قويّاً في تواضعه، والإنسانُ المتسامحُ قويّاً في تسامحه. هؤلاء جميعاً أقوياء لأنهم متوازنون، ومتكاملون، ومتماسكون في كيانهم. أما العنف فإنه يشير إلى انفعال سلبيٍّ طاغٍ في حالِ دَعْمِه بوسيلة أو أداة أو معتقد متطرِّف أو انتماء إلى طبقة أو فئة تعاني من مركزية الأنا التجمُّعية المضخَّمة إلخ. إنه مجرَّد انفعال سلبي أو انفعالات سلبية، متراكمة أو مكبوتة في اللَّاوعي وخاضعة لعقدة النقص أو لعقدة العظمة، ومهيَّأة للانفجار في كلِّ لحظة غير واعية يثيرها انفعال خارجي أو داخلي.

في هذا السياق، أسعى إلى معالجة موضوع التطرُّف الذي يشير، بدوره، إلى انفعال فاعل ينتج عن تفاقم الكبت أو الكبح. ويُحتمَل أن تكون الأسباب أو العوامل الدَّاعية إلى التطرف أو إلى التعصب هي الأسباب ذاتها الدَّاعية إلى العنف. وبالفعل، يُعتبَر التطرف ملازماً للعنف، وبخاصة إن كان نتيجة لاعتقاد الإنسان بأنه يمتلك الحقيقة المطلقة أو يختص بامتلاك الحق، أيّاً كان هذا الحق، ويتخيَّل بأنه الوحيد المسؤول عن تطبيقه. وعلى سبيل المثال، يكون الكاره عنيفًا أو متطرفًا في كرهه لسبب هو أنه ضعيف؛ ويكون المعتقِد بصواب معتقده عنيفًا ومتطرفًا في موقفه لأنه ضعيف؛ ويكون المعتقِد بمطلق صواب معتقَده عنيفاً ومتطرفًا في موقفه لأنه ضعيف؛ ويكون المنفعل بمركزية الأنا الفردية ومركزية الأنا التجمُّعية عنيفًا ومتطرفاً في انفعاله لأنه يعاني من عقدة

تسيطر عليه؛ ويكون المتكبِّر عنيفاً ومتطرفاً في سلوكه لأنه يعاني من ضعف شخصيته، فيعوِّض عن عقدة النقص بعقدة العظمة؛ ويكون المنفعل بتفوُّق عرقه، أو عنصره، أو أصالته، أو مركزية فرديته، عنيفاً ومتطرفاً لأن فرديته متضمَّنة في مفاهيم خاطئة أو مزيَّفة؛ ويكون الجاهل عنيفًا ومتطرفاً في جهله لأنه يعمد إلى الدفاع عن جهله، أي ضعف معرفته، ويرفض كلَّ حقيقة تمسُّ ضعفه بعنف وتطرُّف إلخ. جميع هؤلاء ضعفاء، وعنيفون، ومتطرفون، لأنهم فقدوا توازنهم أو تكاملهم العقلي والنفسي.

في هذا السياق، يتَّصف العنف بالتصلُّب في الرأي، والتطرف في اتخاذ القرار، والموقف السلبي المرتبط بردود الأفعال الانفعالية، التي هي مجرد إضافات تراكمت في اللَّاوعي وكانت حصيلة التربية الانفعالية التي تلقَّاها الإنسان في صغره، ونشأ عليها، ورفض تعديلها أو التخلِّي عنها، وأدت، في نهاية المطاف، إلى بروز الأنا العليا المضخَّمة التي فقدت تكاملها أو توازنها.

٢- القناع الذي يحول دون رؤية الحقيقة أو فهمها:

يتمثل مفهوم *القناع* في البرقع الذي يحجب عن الإنسان القدرة أو الإرادة الحرة والواعية والهادفة إلى معرفة الحقيقة أو معاينتها، ويؤدي، في نهاية المطاف، إلى عمى فكري يحُول دون فهم وجهة النظر التي يتبنَّاها الآخر. لذا، كان القناع كلَّ ما يحُول دون تحقيق المعرفة، وكلَّ ما يصرف العقل عن تبنِّي المبادئ السامية التي تشير إلى الحقيقة السامية.

في هذا المنظور، أدركت أن الجهل، والوهم، والتعصب، والاعتقاد الصارم بامتلاك الحقيقة المطلقة وحرمان الآخرين من امتلاكها، والأنانية، والتعلُّق الشديد، والرغبة الجامحة، ومركزية الأنا المضخَّمة، والتعويض الزائف، وضيق الأفق الفكري، والتكبُّر، والسيادة المتسلِّطة، والاستغلال، والظلم، والطمع، والشهوة، والقسوة، والكراهية، ورفض الاعتراف بالآخر والقبول به، والتصلُّب في

الرأي، وسوء الفهم، والموقف السلبي، إلخ، إنما هي انفعالات سلبية تشكِّل الخيوط التي يُحاك منها نسيج القناع. والحق أن الحكماء، في أصقاع العالم قاطبة، دعوا الإنسان سابقًا، ويدعونه في الوقت الحاضر، إلى إزالة القناع أو الأقنعة العديدة، وإلى الخلاص من الإشراطات الكثيرة التي تقيِّد الإنسان، وتُخضِعه، وتعزله وتقصيه عن معرفة حقيقته الأرضية والكونية، وتحجب عنه حضوره في الآخر وحضور الآخر فيه ضمن تكاملية التنوُّع التي تشير إلى وجود مبدأ أو ثقافة الحوار والتسامح في العلاقات الإنسانية.

٣- الموقف السلبي المجسَّد بالتفسير الحرفي والنفعي والفهم الظاهري للمبادئ الإنسانية والروحية:

في الفهم العقلي المستنير لمبدئي ومبدأ الآخر، يبلغ الموقف السلبي والنفعي والتنكُّر للآخر نهايته، ويتحقق البرهان الذي يؤكد تمثُّل جميع المبادئ الإنسانية والروحية لحقيقة واحدة سامية تشمل تنوُّعات التعبير والصياغة. ويؤسفني هنا أن أقول إن عددًا وافراً من المفوَّضين على تطبيق هذه المبادئ في النطاق الاجتماعي والإنساني، والمسؤولين عن إرشاد الناس وتوجيههم، تقاعسوا عن تأدية واجبهم لأنهم عجزوا عن فهم الحكمة الكامنة فيها والعمق المضمون في مثاليَّتها، الأمر الذي أدَّى إلى الانجراف باتجاه الموقف السلبي والتنكُّر للآخر، وتحويلهما إلى عنصرية متطرِّفة أو عقائدية متصلِّبة ومغلقة حَرَفَتْ سعادة الإنسان إلى تعاسة، وضياء الحياة إلى ظلام، والمحبة إلى كراهية، والفردوس إلى جحيم.

لمَّا كان أنصار أو أتباع الموقف السلبي يذهبون مذاهب وعقائد شتَّى ومتعددة تتناسب مع مصالحهم الفردية أو النفعية، أو مع مستوى إدراكهم المتدنِّي، فقد تجزَّأت وجهة النظر المبدئية إلى وجهات نظر متباينة أو متنافرة أو متباعدة أو متناقضة أدَّت، في نهايتها، إلى خلافات تجاوزت حدود

الاختلاف. والحق أن الاختلاف مفهوم عادي في نطاق التنوُّع الذي تؤكِّد عليه ثقافة الحوار والتسامح. وقد انتهت هذه الخلافات، أيّاً كان نوعها، إلى الصراع واندلاع الحروب، أو إلى النزاع الدائم والمستمر؛ هذا النزاع الذي لم يسعَ القائمون على إدارة شؤون الشعوب إلى وضع حدٍّ لها وتوجيهها لتكون قوة فاعلة لتوطيد أُسُس السلام، والوعي، والمحبة، والخير، والازدهار. وعلاوة على ذلك، تقاعس الراشدون عن تحقيق حلٍّ إيجابي. وهكذا، عانت البشرية بسببهم، ومازالت تعاني، من ألم سلبي وتعاسة مريرة يُرَدَّان إلى التخلِّي عن مبدأ الحوار والتسامح الذي يتألق في إطار لقاء الإنسان مع الإنسان في نطاق الأنسنة.

ثالثاً: المبادئ التي تتضمَّن فيها ثقافة الحوار والتسامح:

تتحقق ثقافة التسامح وعقلانية الحوار في المبادئ التالية التي تتوطَّد عليها أُسُس الحياة الإنسانية الهادفة إلى بلوغ مثالية حضور الإنسان في كوكب الأرض:

١- محبة الإنسانية جمعاء، بغضِّ النظر عن الجنس، واللون، والعنصر، والمعتقد، والدين.

٢- توحيد نطاقات الفكر الإنساني ووجهات النظر العديدة والمتنوعة في دراسة مقارنة تتضمَّن في وحدة تأليفية للدِّين في مفهومه الروحي، وللفلسفة في مفهومها الإنساني والمثالي، وللعلم في مفهومه النظري والطبيعي والكوني.

٣- تعمُّق وتوسُّع في دراسة القوانين الطبيعية والإنسانية والاجتماعية، والولوج إلى نطاق أو مستوى القوانين أو المبادئ الكونية التي تشملها.

٤- الشعور الكامل بالقيمة والمعنى المضمونين والكامنين في الوجود، والحدس بالمعرفة بمفهومها العرفاني الذي يشير إلى وجود وعي كوني يشمل جميع القوانين والمبادئ.

٥- التجربة النفسية، أو العقلية المتسامية، أو الروحية المختبَرة، التي تتألق في عرفان وجداني يتجلَّى في تحقيق الشعور الأسمى بتكامل الوجود الطبيعي والإنساني والكوني.

٦- واقع الحضارات والثقافات والإنجازات الكبرى الرائعة، المتنوِّعة في نطاقات اختصاصها، مقولة تشير إلى وجود تنوُّع ظاهري للمواهب، وتؤكِّد وجود حقيقة باطنية أو جوهرية واحدة، وعقل إنساني جماعي وشامل، وروح كونية فاعلة في التاريخ الإنساني.

٧- العقل المنفتح والقلب المنفتح سبيل إلى لقاء الإنسانية في حوار يتبنَّى الاعتراف الكامل بالآخر والقبول الكامل به، وإلى تفاعل العقل الخاص مع العقل العام، في قاعدة واحدة مشتركة تساهم فيها العقول الفردية الموهوبة، وتشير إلى احترام التجارب الروحية الأخرى التي اختبرها حكماء آخرون في أنحاء العالم.

٨- تأسيس بنية عقلية ونفسية منفتحة ومكوِّنة، تصلح لإجراء حوار بين أبناء وبنات الناس لقبول الآخر والاعتراف به، وتتجاوز الأُطُر المحدودة والمناهج الأحادية البعد.

٩- تمثُّل الطبيعة والإنسان والكون في نسيج واحد متنوع خيوط الحياكة، وتحقيق هذا التمثُّل في وصال مع الحقيقة السامية المطلقة عبر الإنسان.

١٠- «إعلان عالمي لواجبات الإنسان» يشمل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ويدعو إلى تحقيق تربية إنسانية إيجابية فاعلة تجعل من الواجب أمرًا أخلاقيًّا وعقليًّا وروحيّاً.

١١- المثالية بوصفها تطويراً للواقع المعاش، أي كما يجب أن يكون، على نحو تحوُّل من الوجود إلى الوجوب.

١٢- السعي المثابر، الغائي والهادف، إلى تحقيق العدالة الاجتماعية الملازمة لكرامة الإنسان وحرِّيته الماثلتين في الوعي. وهذا يعني التطوير الدائم لتحسين الأوضاع البشرية في نطاقاتها ومستوياتها المتنوعة.

١٣- توطيد التفكير المنطقي لبلوغ محاكمة سليمة تنقذ العقل من تحديدات الإشراطات العديدة وصلابة المعتقدات الكثيرة التي كوَّنت عقل الإنسان ونفسه، وحالت دون تطويره أو تعديله إلى عقل واعٍ ونفس صافية ترقى إلى حكمة الروح.

رابعًا: الأنسنة بوصفها شمول الإنسانية:

الإنسانية جامعة شاملة، وشمولها يتحقق في الأنسنة الماثلة في كيان الإنسان. إنها تمتد وتتسع إلى الكون المادي والروحي، وتحيا وجودها فيهما. وشمول الأنسنة يجعل البشرية أسرةً كبرى تنعم في ظل الحقيقة الواحدة. وهكذا، يكون الناس جميعًا إخوة يلتقون في الجوهر الإنساني الواحد. وكذلك، يكون كلُّ إنسان أخًا لكلِّ إنسان، ويلتقي جميع الناس في أنسنة الإنسان الواحد، أي في وجود واحد وصور كونية متعددة ومتنوِّعة من ناحية الشكل فقط. والحق أن محبة الإنسان تكمن في عظمة شمول الأنسنة الجامعة، ويتأسَّس مبدؤها على أن جميع الناس، على اختلاف أعراقهم وألوانهم، يؤلِّفون جسدًا واحدًا، هو مادة واحدة، وروحاً واحدة لا تتناقض في كيانها.

الأنسنة قوَّة فاعلة في الإنسان، ترشده إلى رؤية نفسه في الآخر، وإلى معرفة نفسه من خلال الآخر. ومحبة المعرفة الماثلة في الحكمة تشير إلى الشعور الفائق بوجود الإنسان في جامعة شاملة تدعى *الأنسنة*. وليست هذه

الأنسنة غير شعور بوجود الكثرة في الوحدة، وبوجود الأفراد في الإنسان، حيث ترى الأنا ذاتها في الوحدة المتكثِّرة. وهكذا، ليس ثمة وجود للكثرة الظاهرية؛ وعلى غير ذلك، توجد تنوَّعات تتمثَّل في كيان إنساني واحد يبلغ درجة الالتقاء المطلقة في الأنسنة.

تتحقق الأنسنة في شعور الإنسان بعالميَّتها وشمولها وكونيَّتها. ولمَّا كان الإنسان الواحد قد وُجِدَ بأنواعه العديدة في أنحاء الأرض، فإن أنسنة الكائن تتخلَّل جميع الأمم، وتتبثُّ في جميع الشعوب، أي في جوهر الإنسان الواحد، المجرَّد والمطلق بأنسنته، الواقعي بفرديته.

يحثُّنا مبدأ الأنسنة على احترام الإنسان وتقديره وإعلاء شأنه. فلا يحقُّ للإنسان أن يعبث بأنسنته في الإنسان، أو يعتدي عليه، أو يستغلَّه، أو يستعبده، أو يحقد عليه، أو يكرهه، أو يحط من قدره. والحق أن الإنسان يكره غيره، ويكره الأنسنة الماثلة في كيانه، ويكره الله للأسباب التالية:

١- إن كنَّا نعتبر الإنسان ثمرة تطور الحياة الكامنة في الطبيعة، فإن الحقيقة تشير إلى أهمية وجوده. وعلى سبيل المثال، تشير تربية الشجرة والعناية بها إلى تحقيق الغاية الماثلة فيها؛ وتتجلَّى هذه الغاية في ثمرة هي نتاج وجود الشجرة. ولهذا السبب، يُعتبَر القضاء على الثمرة جريمة نكراء لسبب هو أن الغاية من وجود الشجرة تنعدم. وينطبق هذا المثل على واقع وحقيقة وجود الإنسان والغاية المرجوَّة من وجوده. لذا، لا يحقُّ للإنسان أن يقضي على الإنسان، أي على نفسه، لأنه ثمرة تطوُّر شجرة الوجود الأرضي والغاية الناتجة عن هذا التطور. لقد فعلت الطبيعة الحية بالطاقة الروحية أحقابًا زمانية طويلة لإثماره، أي لإبداعه. لذا، كانت الغاية التي من أجلها وُجِدَت الطبيعة الحية غايةً نبيلةً وجليلةً تستحق الإكرام والمحبة والاحترام.

٢- إن كنَّا نعتبر الإنسان الصورة المصغَّرة للحقيقة السامية المطلقة، واللَّامنظورة، واللَّاموصوفة، واللَّامحدودة واللَّانهائية، فإنه يستحق التقدير والمحبة والتكريم على نحو إجلال وتوقير للحياة الروحية الماثلة في كيانه. إذن، فالإنسان، الذي يحيا ضمن نطاق الوجود الحي، كائن يتجاوز الوجود المحدود الممثَّل بالموت، وليس شعوره بلامحدوديَّته وكونيَّته غير دليل على حقيقة لامحدوديَّته. وفي هذا المنظور، نعلم أن إهانة الإنسان، أو كرهه، أو قتله معنويًّا أو ماديًّا، قضية تشير إلى إهانة الألوهة التي كوَّنتْه. أقول هذا الكلام وأنا أعلم أن التطور بعد وجود الإنسان على الأرض يشير إلى تطور عقلي ونفسي وروحي. لذا، كان أيُّ اعتداء على الإنسان، أو أيُّ تقليص لأهمية وجوده وقيمته، اعتداءً على العقل والروح وتقليصًا لهما.

٣- إن كنَّا نعتبر الإنسان مثالاً شاملاً لأنسنة جميع الناس، فإن كل إهانة تُلحَقُ به تُلحَقُ أيضاً بالجنس البشري بأجمعه؛ هذا، لأن احترام أنسنة الكائن الإنساني يعني احترام الإنسانية كلِّها، والعناية به تعني العناية بالبشرية كلِّها. ولمَّا كانت محبة الإنسان الفرد تعني محبة الإنسانية جمعاء، فإن مبدأ الوجود حقيقة تستحق الجهد والتحقيق.

٤- إن كنَّا نعتبر الإنسانية متنوِّعة في لونها، وعرقها، وفقرها وغناها الماديين، ومختلفة في أقطارها المتنوعة، فلا يحق للإنسان أن يستغل الإنسان الآخر؛ هذا، لأن التنوُّع الماثل في تنوُّع المواهب الإنسانية والموارد الطبيعية يشير إلى التكامل وليس إلى التنافر. وإن كنَّا نعتبر أناساً أفضل من أناس آخرين لأسباب المعيشة، أو البيئة، أو اللون، أو العنصر، فإن الإنسان، الذي يأخذ بهذه الأفضلية، لا يختلف عن غيره في أمور كثيرة يتَّهمه بها. والحق أن الإنسان، في رحلة حياته الأرضية، يرتحل عبر هذه الأطوار كلِّها ويمارس إنسانيته من خلالها.

فإنْ هو احتقرها في غيره فإنما يحتقرها في نفسه. وعلى سبيل المثال: إن كنت أعتبر غيري عبدًا، فأنا عبد مثله في مجالات وحالات عديدة، ويُحتمَل أن أكون أكثر عبودية منه؛ وإن كنت أعتبره زنجيًّا، فمن المحتمل أن أكون أكثر سوادًا منه في أمور كثيرة، أي أكثر سوادًا منه في داخلي؛ وإن كنت أعتبره فقيراً أو متخلفاً، فيُحتمَل أن أكون أكثر فقراً منه بروحي وعقلي، وأكثر تخلفًا في ثقافتي وحضارتي، أي أكثر تخلفاً في إنسانيتي. والحق أن محبتي للإنسانية تحثُّني على عدم اعتبار كل ما أجعل منه عائقاً أو فاصلاً بيني وبين الآخر الذي يشاركني أنسنتي.

٥- إن كنَّا نعتبر الإنسانية تهدف إلى تحقيق غاية كامنة في كيانها، فإن إنسانيتي تحُول دون اختلاق عوائق تحُول دون تحقيقها. وبالفعل، لا يحق للإنسان أن يسعى إلى تثبيت التفرقة العنصرية، وإثارة التناحر الإقليمي والنزاع المؤدي إلى الحروب؛ هذا، لأن الغاية تشير إلى تلاقي الأهداف التي تتفرَّع من الغاية الأصلية. ولا تتحقق هذه الغاية إلَّا بالمشاركة، والتعاطف، والمحبة، والتسامح، والعيش في سلام مع الآخرين، والتضحية بالمواهب في سبيل إسعاد الآخرين.

إن شمول الإنسان الذي يمتد ويتسع من مركزية الأنا إلى مركزية الأسرة، إلى مركزية الفئة، إلى مركزية المجتمع، إلى مركزية العالم، وأخيراً، إلى مركزية الكون، دليل على أنه كائن أرضي وكوني. وإن كونه ينتمي، في واقعه، إلى عالم واحد وكون واحد يعني أن الأخوَّة الإنسانية لا تتعارض مع كونه ينتمي إلى وطن؛ هذا، لأن الإنسان يشع في اتجاهات أربعة: أولاً، من كيانه إلى ذاته لكي يحقق كمون هذا الكيان؛ ثانيًا، من كيانه إلى المجتمع لكي يحقق إنسانيته في اجتماعيته؛ ثالثًا، من كيانه إلى العالم لكي يحقق أنسنته؛ رابعاً، من كيانه إلى الكون لكي يحقق كونيته أي حياته الروحية والكونية التي

تعني روحانية وجوده. وهكذا، يكون الإنسان مزوَّداً بطاقة روحية تُمِدُّه بقدرة فائقة لتحقيق تأليف بين الاتجاهات أو الأبعاد الأربعة وبين المركزيات الخمس المذكورة.

في الاتجاه أو البعد الأول، يشع الإنسان وفق قاعدة إنسانية، فطرية نقيَّة، تعبِّر عن ناموس روحي، غير مكتوب بالحرف، نُحِتَ في كيانه منذ بداية التكوين. ويُعتبَر هذا الاتجاه أو البعد الأول أهم الاتجاهات أو الأبعاد الأربعة؛ هذا، لأن الإنسان الروحي، في جوهره، لا يحقق الغايات النبيلة ما لم تكن كامنة فيه.

لذا، يجب أن يحققها أولاً؛ ومتى حقق الإنسان المعنى المضمون في جوهر وجوده، والغاية التي تدعوه إلى تحقيقها، فإن اتجاهه أو بُعده الثاني يشع باتجاه المجتمع، حيث يحقق وجوده الشخصي في الحياة الاجتماعية؛ وأعني أنه يحقق إنسانيته في اجتماعيَّته. ويتجلَّى الاتجاه الثالث في بُعد إنساني أشمل يحقق فيه أنسنته. أما الاتجاه أو البعد الرابع، فإنه يتحقق في شعور كوني ماثل في روحانية سامية. ويُعتبَر هذا البعد الأخير تحقيقاً لشعور وجداني يشير إلى أنه ينتمي إلى الكون وسرمدية الوجود وأزليته.

في هذا المنظور، يقضي الواجب بخدمة المجتمع، الممثَّل بالوطن، أولاً، وخدمة الإنسانية، الممثَّلة بالأنسنة، ثانيًا، وتحقيق الكونية، ثالثاً. ومع ذلك، لا يتناقض واجب خدمة المجتمع مع خدمة العالم ومحبته، ولا محبة الإنسانية جمعاء. والحق أن هذه المحبة أو الخدمة ثلاثية البعد تبلغ ذروتها في محبة الكون وأزلية الحياة الروحية. وهكذا، نعلم أن المجتمع، في صورة الأمة أو الدولة، والعالم، في صورة الإنسانية، يتلازمان ويتوافقان في تقويم الإنسان كوجود شامل وكلِّي يتجاوز الحدود والأمكنة والأزمنة إلى الشمول والأبدية، إلى الأنسنة المطلقة حيث يلتقي الزمان والأبدية. والحق أن تربية تتأسَّس على مبدأ شمول الأنسنة وكونية الإنسان كفيلة بأن تضع حدًّا للعنف والصراع بأشكاله

كلِّها. إذن، فعالم الأنسنة، الذي لا يتجزأ أو لا ينقسم، كونه النطاق الذي تتحقق فيه إنسانية الإنسان وكونيته، يطالب الإنسان بتحقيق غايته الاجتماعية، والإنسانية، والعالمية، والكونية. هكذا، أفهم شمول الأنسنة وشمول كونيَّتها.

يراودني هذا التصور، الذي يحمل مجمل المبادئ، وأنا أتعمَّق في تأمل نفسي وفهمها. أتأمل نفسي، وأتأمل الكون وكيان الإنسان الروحي والاجتماعي. وفي هذا التأمل ثلاثي الأبعاد، أتساءل: كيف أُبدِعُ من نفسي كيانًا شاملًا؟ كيف أحقق الكون في شموله؟ كيف أجعل وجودي الاجتماعي والإنساني شاملًا؟ ولا يدهشني أبداً أن أجيب نفسي: أنا كائن أحيا شمول كياني، وشمول الكون، وشمول الحياة، وشمول الأنسنة، وشمول إنسانيتي الاجتماعية، وشمول المادة والطاقة والروح. وإذا كانت الحقيقة السامية المطلقة غاية في ذاتها، وتتجلَّى في الكل الشامل، ومن خلال شمول الكل، وفي الأنسنة ومن خلالها، وفي الإنسانية ومن خلالها، فإن الكونية أو الشمول يمثل المبدأ الفاعل في الكون عامة وفي كوكب الأرض خاصة. وإذا كان الشمول مبدأً كونيّاً فاعلاً، فلا بدَّ لي أن أجد التفسير الواضح للكثرة أو التنوع الظاهري. ثمة تعددية متنوعة وكثرة ظاهرية في الوجود، وثمة وحدة باطنية شاملة تكمن مستترةً في التنوُّع. لذا، كان الوجود، في جوهره، وحدةً في كثرة وتنوُّع، وكثرةً وتنوعًا في الوحدة.

أتساءل من جديد: كيف تصدر الكثرة المتنوِّعة من الوحدة؟ وعن هذا التساؤل، أجيب: عندما نعاين الكون بنظرة فاحصة على نحو تأمُّل عقلي، تتراءى لنا حقيقة عميقة، شاملة، قائمة في ذاتها وممتدة ومتَّسعة إلى ما لا نهاية. وتبدو هذه الحقيقة كأنها سلسلة وجود كبرى تبدأ من الأدنى وتنتهي في الأعلى. وثمة مستويات تراتبية تبدأ من الأدنى على نحوٍ يشتمل به المستوى الأعلى على المستوى الأدنى. والحق أننا لا نستطيع تعريف الأدنى بأكثر من قولنا: إنه ما لا نهاية له في الصِّغر؛ وكذلك، لا نستطيع تعريف الأعلى إلَّا بأنه

ما لا نهاية له في الِكبَر. وهكذا، توجد لانهايتان هما: لانهاية الصغير ولانهاية الكبير.

بين هاتين اللَّانهايتين، توجد *لانهاية ثالثة* تلتقي فيها اللَّانهايتان على نحوٍ يكون الإنسان مركز لقائهما. وبين هاتين اللَّانهايتين، تبدأ سلسلة الوجود الكبرى وتنتهي، وترتقي ضمنها أدنى الظاهرات إلى أعلاها. وفي ارتقائها، تتدرَّج في تماسُك جوهري، واتصال لا يعرف الانفصال. وفي هذا الاتصال، تعبِّر كلُّ ظاهرة عن وجودها بالأخرى التي تتضمَّن فيها. ويشير هذا التسلسل، الذي لا يعرف الانفصال في مستوياته أو حلقاته، على أن الوجود وحدة تأليفية متماسكة تنطلق، عبر ترتيباتها المنتظمة، من متعضيَّته الأدنى لتصل إلى الإنسان، ومنه إلى الأعلى، أي إلى لانهاية الكبير، ومن مستوياته المادية لتبدأ بأصغر ما في الكون إلى أكبر ما في الكون مرورًا بالإنسان.

إذا كان الوجود في أكبره، أي في لانهايته الكبرى، يشتمل على ذاته في لانهاية صغرى، فإن كل ما يوجد في الكون الأكبر يوجد في الكون الأصغر. لذا، ينغلق الكل الأكبر في الكل الأصغر، تمامًا كما تنغلق الدائرة بكاملها في النقطة التي هي تركيز الدائرة. لذا، كان الأصغر، أي الكل الصغير، تركيزًا للكل الكبير، وليس جزءًا منه.

في حالة الإنسان، نرى كيف يتفاعل هذا الكائن، الذي هو مركز لقاء اللَّانهايتين، مع الكل الأكبر والكل الأصغر. ففي جسده، يتم اللقاء بينه وبين الكون المادي في عملية مباشرة. فهو يتَّحد مع الكون المادي من خلال طعامه وتلاؤمه مع البيئة، وذلك لأن جسده يشكل مع الوجود المادي كياناً واحداً. وبالمثل، يتَّحد أو يتفاعل مع الغلاف الغازي في تنفُّسه؛ ويتَّحد أو يتفاعل مع النور والحرارة ومع الأشعة الكونية الأخرى التي يحيا في وسطها. ويتَّحد أو يتفاعل مع الإنسان الآخر في أنواعه الإنسانية العديدة ليمتد في نفسه، وفي صورتها الاجتماعية والعالمية والكونية، إلى ما لا

نهاية. ويفكر في وجوده وحقيقة كيانه وهو يتأمل الكون في كلِّيته وشموله، ويسعى إلى توطيد أو إقامة اتصال ضمني معه. وهكذا، تُعتبَر الإنسانية لانهاية ثالثة تلتقي فيها اللَّانهاية الصغرى مع اللَّانهاية الكبرى في تشابك أو تعقيد كبير.

لا يسعني أن أبحث مقولة الإنسانية إلَّا من ناحيتين: ناحية الإنسان الفرد، وناحية الإنسان الاجتماعي والعالمي. وفي هذا السياق، يتبادر إلى عقلي السؤال التالي: كيف أستطيع أن أتصور الإنسان الفرد؟ أين يوجد هذا الإنسان؟ كيف يكون في جوهره أو في كيانه؟ وإذا أقمت مقارنة بينه وبين الجسد، أتساءل من جديد: كيف يمكنني أن أتصوَّر القلب وحده أو الدماغ أو أيَّ عضو من أعضاء الجسد؟ هل يوجد عضو بمفرده على نحوٍ مجرد؟ ما هو؟ كيف يكون؟ والحق أن العضو لا يوجد إلَّا في الجسد؛ وبالمثل، لا يوجد الإنسان الفرد على نحوٍ مجرَّد.

في هذا المنظور، يمكنني أن أقول: إن الإنسان الفرد غير موجود؛ هذا، لأن البشرية بدأت بجماعة ولم تبدأ بفرد. وقد أثبتت البحوث الپاليونطولوجية والأنثروپولوجية هذا الواقع. وبالمثل، أثبتت الدراسات المعمَّقة في نطاق الحكمة أن مفهوم الإنسان، أي آدم، يعني الجنس البشري. وهكذا، نعلم أن الفرد غير موجود إلَّا كعنصر مكوِّن. وإن وُجِدَ، فما هو؟ ما فكره؟ ما عقله؟ ما أخلاقه؟ وهل يتمتَّع الفرد بالتفكير في حالة فردانيَّته؟ وهل تكون له مُثُل وغايات؟ وعلى هذا الأساس، توجد الأنسنة، أي الإنسان الواحد المتنوِّع في فردانية تسعى إلى التحقيق في الأنسنة الشاملة للإنسان الاجتماعي. وبالمثل، يسعى إلى تحقيق شمول كونيَّته المؤنسنة.

خلاصة

تتحقق عالمية الإنسان وكونيَّته على صعيدين: صعيد اجتماعي ضمن إنسانية واقعية ندعوها المجتمع الذي وُلِدَ أي وُجِدَ فيه؛ وصعيد عالمي ندعوه صعيد الأنسنة الشاملة والكونية. ففي المجتمع الواحد، يتَّحد الأفراد في نطاق يدعو الإنسان إلى تحقيق إنسانيته الجماعية على نحوٍ يمتد الفرد في الفرد الآخر لكي يتجاوز فرديته إلى إنسانيته الاجتماعية. وهكذا، يخرج الفرد من مركزية أناه إلى المركزية الاجتماعية. وفي وفاق مع هذا المفهوم، تتمثل إنسانية الفرد في اجتماعيَّته لتكون هذه الاجتماعية تحقيقًا لأنسنته. أما الأنسنة المحققة على صعيد العالمية، فإنها تشير إلى توسيع هذه الأنسنة إلى الاجتماعية الإنسانية الشاملة.

يجدر بنا أن نعلم أن اجتماعية الإنسان، التي تشير إلى تحقيق الأنسنة على مستوى المجتمع ومستوى العالم، تختلف اختلافًا كبيرًا عن تجمُّعية الحيوان. والحق أن الحيوان يعجز عن مدِّ تجمُّعه وتوسيعه إلى الأنواع الحيوانية الأخرى. لذا، كانت اجتماعية الإنسان تحقيقًا لأنسنة تمتد وتتسع إلى الإنسانية جمعاء. وإذ يحقق الإنسان أنسنته، يحقق أيضًا وجوده في كلِّ إنسان آخر، أي وجوده الإنساني الاجتماعي الحقيقي في أبدية الحياة.

في نهاية هذا البحث، يقضي الواجب أن أذكر بعض المبادئ التي تجعل من الإنسان كائنًا اجتماعيّاً وعالميّاً وكونيّاً؛ وبالمثل، يقضي الواجب أن أذكر بعض العوائق التي تحُول دون تحقيق الأنسنة الاجتماعية.

لمَّا كانت غايتي في الوجود الأرضي تكمن في المعرفة، وكان وجودي الاجتماعي تحقيقًا للغاية التي من أجلها وُجِدت، فإنني أضع موهبتي، الماثلة في معرفتي أو في عملي، في خدمة الإنسان. وهكذا، أمتد إلى الآخر وأتسع، وأحقق وجودي المؤنسَن، أي عالميَّتي وكونيَّتي الماثلة في اجتماعية أنسنتي. فأنا قد وُجِدت لأحقق أنبل المبادئ الكونية الشاملة في أدنى العوالم وأكثرها كثافة. وعندما أدرس الكون، في عمقه، بحكمة ووعي، وأدرس عمق المعرفة، وأتوغل إلى عمق نفسي، أعلم أن واجبي يتركز في حقيقة واحدة تشير إلى انسجامي مع الكون في غاياتي

الكبرى والعظمى التي تتحقق في اجتماعية الأنسنة، وفي عالمية الكينونة الإنسانية المحققة بالتطبيق الواقعي لحقيقة وجودي.

تعني عالمية اجتماعيَّتي، أي أنسنتي، أن أجعل من نفسي كائنًا يحقق عمق وجوده. وعالميَّتي هذه تشير إلى صلة كلِّ عمل أقوم به، وكلِّ موهبة أتميز بها، وكلِّ تفكير أتمثَّله، وكلِّ مبدأ أعتنقه، بالعالم كلِّه. فإن كنت أنسجم مع الأعداد الغفيرة من الأنواع البشرية تمامًا كما تنسجم أعداد فيثاغورث وأنغامه في وحدة متماسكة، كنت عالميًّا في كياني.

يؤلمني هنا أن أقول إن العقائد العديدة التي طُرِحَت في حقل التطبيق كانت تجمُّعية أو مجتمعية أو شعائرية، ولم تكن *اجتماعية* في أنسنتها، الأمر الذي جعل منها تبلورًا أدَّى إلى تعدُّد أنواع النزاع والصراع.

أتمنى أن أجد أو أرى عالمية الأنسنة العالمية والشاملة كما أراها أو أجدها في عالمية القانون العلمي. ففي جميع العلوم، تتآلف القوانين والمبادئ العقلية ضمن نطاق حقيقة واحدة وتطبيق واحد. ويبرهن هذا التآلف عن وحدة العقل البشري وعن وحدة الحقيقة العالمية والطبيعة الكونية. لذا، لا تستقيم اجتماعية الإنسان وأنسنته ما لم ينسجم مع قانون وجوده، ويطرح عنه ما يعيقه عن تحقيقه. لقد تعلَّمت من حكماء الأنسنة الاجتماعية أن تحقيق الإنسانية يتألق في تحقيق سلوك إنساني وعقلي وروحي أطبِّقه على نفسي وعلى الآخر ليكون قانونًا أو مبدأً واحدًا ندعوه لقاء الإنسان مع أخيه الإنسان.

-٧-

العلم والحكمة ومصير الإنسان

أستهلُّ هذا البحث بتصوُّر ما كان في بداية الدور الزمني الذي نحياه، المعروف في بعض المقولات اللّاهوتية بدور آدم وحواء. أما آدم فهو إنسان هذا الدور؛ هو الجنس البشري الآدمي بألوانه وأنواعه؛ هو الإنسان في كلِّ المراحل الزمانية والمكانية؛ هو الرجل الآدمي والمرأة الآدمية؛ هو الرجل والمرأة، أي الإنسان الذي يحمل الكون والطبيعة في روحه وجسده.

في تلك البداية، كان الإنسان ناميًا في كماله، أو تامًّا في كيانه المادي والروحي. كان حكيمًا يعي أبعاد وجوده ويحياها، ويعي حقيقة نفسه ويعرفها. وكانت الغدَّة الصنوبرية ناميةً كلَّ النمو ومنفتحةً لتكون الأداة التي تصل الإنسان بالملأ الأعلى، وذلك في سبيل معرفة القوانين الكونية. كانت الغدَّة الصنوبرية المنفتحة، التي تدعى مجازاً بـ«العين الثالثة»، المنظار الذي يشاهد الإنسان، من خلاله، أسرار العوالم وأسرار العالم المادي. ولقد كشفت حكمة الإنسان الأول عن اتصال مباشر بالكون والوجود، وعن حدس مباشر بمعرفة الحقيقة. ولا أبالغ في قولي إن الإنسان الأول كان متحداً مع الكون، يحدس الحقيقة، ويتوافق مع المبادئ الكونية، ويطبِّق قوانينها التي هي قوانينه ذاتها. في البدء، كان الإنسان عالِماً وحكيماً ينسجم مع عالمه، يفهمه، ويتحد به، ويأبى السيطرة عليه. في البدء، كانت الأحادية، وكان العقل مستغرقاً في الوعي الكوني.

هكذا، نرى أن الغدَّة الصنوبرية النامية، والمنفتحة على هيئة وردة، هي أداة صلة الإنسان مع الكون. وإذا ما تساءلنا عن معرفة الإنسان وحكمته، أدركنا أن حكمته ووعيه نتجا عن عدم وجود حجاب يتمثل في العقل المتعيِّن بالدماغ، فيحُول دون رؤية الحقيقة الكونية أو حدسها. وإذا شئنا الغوص في الموضوع إلى عمقه واتساعه، علمنا أن أصحاب الرؤى هم أناس تفتحت غدَّتهم الصنوبرية عن طريق الممارسة النفسية والعقلية والروحية، وعرفوا قوانين الوجود والكون. وإذا توخينا المزيد من المعرفة، قلنا: إن الموهوبين من أبناء الأرض، في شتى النطاقات الفكرية والإنسانية، هم أناس تفتَّحت غدتهم الصنوبرية، أو هم أناس تقوم غدَّتهم الصنوبرية بوظيفتها خير قيام. إنهم أبناء الحدس والاتصال مع الكون وعدم الانفصال عنه.

في هذا السياق، نتساءل: ماذا حدث لإنسان البدء؟ وهل حافظ على المستوى الذي تسنَّمه في مجال الحكمة والوعي؟ أم أنه تراجع عن حكمته، فأدى هذا التراجع إلى ما تشير إليه بعض المقولات اللَّاهوتية بـ«السقوط» الذي يشير إلى السقوط من أو التراجع عن علياء الحكمة والوعي؟ هل تميَّز إنسان البدء بالعقل الذي نرمز إليه بالدماغ تارة، كما يزعم أنصار المذهب المكانيكي، وبالفكر أو بالقدرة المفكرة تارة أخرى، تمامًا كما يتحدث أنصار المذهب الديناميكي؟

لم يتصل إنسان البدء بالعقل. فالعقل يقف من الوجود موقف الفكر والموضوع. في العقل تكمن الثنائية؛ وفي الثنائية تكمن قسمة الكون والعالم إلى نطاقين متمثلين بالتناقضات الظاهرية: النور والظلمة، الخير والشر، اللذة والألم، الوعي واللَّاوعي، المادة والروح، الفكر والموضوع، المرأة والرجل، الله والعالم، الأدنى والأعلى، البرودة والحرارة، إلخ. وعلى غير ذلك، كان الإنسان الأول على صلة بالكون، ولم يكن حجاب الثنائية أو التعددية الكامنة في العقل قائمًا.

نتساءل من جديد: إذا كان تراجُع الإنسان قد حدث في مرحلة متأخرة، فهل هذا يعني أن التراجع يرمز إلى انتقال أو تحوُّل من الحدس والحكمة والوعي إلى العقل الذي يرمز إلى ثنائية الفكر والموضوع، أي إلى ثنائية المراقِب والمراقَب، أي إلى ازدواجية المجرِّب والمجرَّب والعالِم والمعلوم؟ هل يعني هذا التراجع تحوُّلًا طرأ على الإنسان نتيجة لتفاعله مع العالم المادي، فجعله يبحث عن الحقيقة عن طريق العقل المجرِّب الذي وضع العالم المادي أمامه موضع التجربة والاختبار، وتنازل عن وحدة أو تكامل الفكر والموضوع، والعقل والطبيعة، أي الوحدة التي عرفتها الحكمة؟

يشير تراجُع الإنسان الأول إلى تراجُع الحكمة وإلى استغراق العقل في العلم، وإلى تحوُّل الحكمة إلى الفلسفة التي هي محبة *الحكمة*. لذا، كانت الحكمة متأصلة في الوعي، والمعرفة المباشرة، والحدس، ووحدة الموضوع والفكر، والاتصالية دون الانفصالية؛ وكانت محبة الحكمة تشير إلى العقل الباحث عن سرِّ الوجود، وعن الحقيقة وجوهر الكيان ضمن نطاق التناقضات أو الثنائيات أو التعارضات الظاهرية. وأصبح العقل يقدِّم ذاته على الموضوع، ويفصل عالم الداخل عن عالم الخارج، ويحاول إدراك الثنائية التي أدت إلى ازدواجية القيم والمعايير، وإلى معالجة العالم عن طريق التجربة التي تخطئ وتصيب.

تلكم هي حقيقة الواقع: تراجُع أول من الوحدة إلى الثنائية. وفي هذه الثنائية، أصبح الإنسان فيلسوفًا، أي محبّاً للحكمة، وعالِماً يسعى إلى المعرفة عن طريق التجربة والاختبار، ولم يعد الإنسان حكيمًا. وهكذا، تخلَّى الإنسان عن حكمته، وعن اتحاده مع الكون، ليصبح جزءاً أو فرداً معزولاً يبحث عن أصل أو أصول حقيقته في الثنائية التي أوجدها، وفي التعددية التي جعلها شعاراً له، الأمر الذي جعله يتخلَّى عن وعيه الكوني.

نتساءل من جديد: هل طرأ تراجُع آخر للإنسان العاقل، أي الإنسان العالِم، غير التراجع الذي طرأ على الإنسان الحكيم؟ هل طرأ تراجع عن الثنائية، التي بدأ العقل يختبرها، إلى نطاق آخر أدى إلى المزيد من الضياع والتشتت في عالم التناقضات أو التعارضات الظاهرية؟

حدث تراجُع آخر تمثل في انتقال من الثنائية إلى التعددية. وقد تجسَّدت التعددية الفكرية في البحث عن معرفة أصول الأشكال والأشياء والظاهرات ومعرفة قوانينها. وفي هذا التراجع، تعلَّق الإنسان بالتقاليد، والأعراف، ومارس الطقوس، واعتنق العقائد والمذاهب التي اختلقها. والحق أن ضياع الإنسان أصبح أشد وأقسى في التعددية منه في الثنائية. وعندئذٍ، بدأت محبة الحكمة، أي الفلسفة، في دراسة ظواهر الوجود ومعالمه العديدة، الأمر الذي أدَّى إلى تشتُّت الفكر وتجزئة مفاهيمه وقيمه، وأدَّى أيضاً إلى تعدُّد المعرفة وتنوُّعها ووجهات نظرها، الأمر الذي أدَّى، بدوره، إلى الخلاف الفكري والاجتماعي. ولقد رُمِزَ إلى هذه المرحلة من تقهقر التطور بعد وجود الإنسان الأول الحكيم في شرقنا القديم ببرج بابل الذي هو، في صميمه، برج الوحدة المتركزة والمتعددة والمتنوعة في رمزيتها.

وفي هذا الرمز، وُجِدَت التعددية المتوحدة والتنوع المتكامل والكثرة في الواحد، تمامًا كما وُجِدَت الوحدة المنبثَّة في التنوع. ولئن كانت الميثولوجيا تشير إلى أن برج بابل هو، في واقعه، برج إيل، لكن التعددية، الممثلة ببلبلة الفكر، أدَّت إلى تشتُّت الإنسان في نطاقات الفكر، أي في التعددية الطبيعية الممثلة في تنوع الأشكال وتكوين العناصر وتأليفها، والتعددية الفكرية والاجتماعية الممثلة بتنوع القيم والمفاهيم والعقائد، والتعددية اللَّاهوتية الممثلة بتنوع المذاهب والعقائد والشرائع. في هذا الوسط المضطرب، تاه العقل في نطاق تعدُّدية برج بابل، هذه التعددية التي أساء فهمها وعجز عن تأليفها في وحدة متكاملة.

يمكننا الآن أن نُنشئ جدلية إنسانية هابطة وغير متناقضة:

أ- الحكمة تراجعت، وأصبحت محبة الحكمة؛ الروح تراجعت، وأصبحت عقلاً، هو مجرد أداة للروح تسعى إلى فهم العالم المادي؛ الأحادية الماثلة في الروح تراجعت، وأصبحت ثنائية ماثلة في العقل.

ب- محبة الحكمة تراجعت، وأصبحت تعددية فكرية على مستوى الطبيعة، وتعددية فكرية على مستوى المجتمع، وتعددية لاهوتية على مستوى العقيدة.

وكان العقل، في كلِّ تراجع، يزداد حيرة واضطرابًا. كان العقل حاضرًا منذ البداية. إنما كان مستغرقًا في الوعي الكوني على مستوى الحكمة، وفي الطبيعة على مستوى محبة الحكمة، وفي الكثرة على مستوى التعدد المتكامل بأنواعه. ويقابل الهبوطَ أو التراجعَ صعودٌ وتقدُّمٌ وعودةٌ إلى الأصول المشتتة والموزعة. ولما كان العقل يتميز بالديناميكية المتجاوزة لمكانيكية الدماغ، فقد بدأ يستوضح أسباب تراجعه أو هبوطه إلى المستوى الذي بلغه في التعدديات الظاهرية والتعارضات المتقابلة؛ وبالتالي، أخذ يبحث عن الوحدة الشاملة الجامعة والمختبئة التي تشمل الظاهرات الكامنة في الكل - الواحد. وهكذا، انطلق العقل، عند هذا المستوى من تطوره، في حركة عودة تمثلت، بادئ الأمر، بالتنكُّر للتعددية الفكرية والاجتماعية والمذهبية. وفي هذا السياق بدأ رفضُه لتراجعه الأخير؛ لكنه لم يعد إلى محبة الحكمة التي هي، وفق هذه الصورة، علمُ الوجود بما هو موجود، وبدأ يستوضح حقيقة هذا الوجود. والحق أن العلم، في هذا المنظور، هو معرفة الوجود على نحوٍ واقعي وتجريبي واختباري. ولما كان العقل، وهو في نطاق الثنائية، يخطئ ويصيب وفق قيمه ومفاهيمه ومستوى وعيه، وفي نطاق التعددية الطبيعية والفكرية والمذهبية يتجوَّل في متاهة العالم، فإنه يحاول أن يتصور الوحدة التي تجمع شتات الأجزاء والعناصر والأشكال في حقيقة واحدة أو في كيان واحد، ليكون صديقًا للطبيعة ومحبّاً للعالم والكون، ويتكامل معهما في وحدة لا تنفصم أو في انسجام أو تكامل.

وجد العلم، وهو يعاني من التشتت الظاهري في التنوع، صعوبات كبرى أدَّت، بادئ الأمر، إلى تعميق جذور تناقضاته. وبالفعل، ازداد تشتُّت العقل في الفروع العديدة التي اقتفى العقل أثرها وهو في سبيل بحثه عن الحقيقة أو الحقائق. ولا شك أن هذا التشتُّت يعود، في أصله، إلى رفض العقل للشعائر العديدة التي أشرطته واحتجزته، وسعت إلى إظهار ضآلة شأنه في نطاق المعرفة. وعندئذٍ، ثار العقل دون أن يتمرَّد، وبالغ في ردِّ فعله، خلال عصر التنوير، على المعطيات الطقسية والتقاليد التي أعاقت مسيرته المعرفية، وأخذ يبحث عن الحقيقة أو المعنى والقيمة المنطويين في سرَّانية الوجود.

لمَّا كان العقل ردَّ فعل على الشعائر والعقائد المتنوعة والمتعددة القائمة في صلب الحكمة، فقد رفض مقولاتٍ اتصفت بطابع المثالية أو الروحانية اللَّامتوافقة مع الطقوس. وبالفعل، لم يكن قادرًا على التمييز بين الروحانية والإشراط الطقسي لسبب هو أنه وضعهما تحت عنوان مقولة واحدة لا تعترف الواقعية المادية بها.

بدأ تطور العقل في نطاق العلم يُفصح عن ذاته تدريجيّاً. وفي تعمُّقه في دراسة المادة، والتوغل إلى مضامينها، وجد عالمًا تحتيًّا دعاه عالَم الجسيمات الأولية أو عالَم ما دون المستوى الذري، وهو مستوى يفصح عن وجود نطاق أو مستوى أعمق أشار، بدوره، إلى وجود حقيقة شاملة، غير مرئية، وغير موصوفة، وغير نهائية، دعاها اصطلاحاً «الحركة الكونية» أو الدَّفق أو السيلان الدائم الذي يُمِدُّ عالَم الطبيعة وعالَم الظواهر بالطاقة والحياة والحركة. وعندئذٍ، أدرك العقل وجود مستوى يتمثل بالدقائق الصغيرة التي هي إشعاع مجرَّد من الكتلة. وهكذا، أدرك العقل حقيقة الطاقة، وعلم أن الكتلة ليست أكثر من طاقة كثيفة. وبالفعل، استطاع العقل أن يتبيَّن حقيقة

المادة، وأدرك أنها إشعاع أو نور في جوهرها، وطاقة وحياة وحركة في واقعها.

يمكننا أن نقول إن ما حدث في إطار العلم النظري تماثَل مع ما حدث في إطار العلوم الاجتماعية والنفسية. وعلى مثال العلم، الذي اتجه إلى معرفة الحقيقة الكامنة في المادة، سعى علم نفس الأعماق، أي علم النفس التأليفي والتكاملي، إلى معرفة الجوهر الكامن في كيان الإنسان. وقد اكتشف هذا العلم وحدة جوهر الإنسان والطبيعة والكون. وبدأ العقل يتساءل: ما الفرق بين المادة والروح، بين العلم والحكمة؟ أدرك العقل أن الفرق بينهما هو فرق في اللطافة والكثافة، أي فرق في درجة الاهتزاز، أي فرق بين الطاقة والكتلة وبين الحياة والشكل. فالروح كيان لطيف قابل للتحوُّل إلى كلِّ شيء، وشبيه بمعادلة أينشتاين (الطاقة = الكتلة في جداء مربع السرعة؛ $E = m.c^2$)، والمادة روح كثيفة، والكتلة طاقة أو حياة منطوية على ذاتها. وهكذا، ضاقت الفروق بين الحكمة والعلم في عصرنا، فأصبح العلم يتجه إلى تحقيق التكامل بعد التناقض، والتلاقي بعد التشتُّت، والاتصال بعد الانفصال، والديناميكية بعد المكانيكية، والوحدة الكونية الشاملة لمستويات الوجود بعد التجزئة. وباختصار، بدأ العلم رحلة عودته إلى الحكمة. وعلى هذا الأساس، تشير المراحل الأخيرة لتطور العلم إلى تقدُّم متنامٍ لمعرفة الحقيقة الواحدة المختبئة في قلب المادة والطاقة والحياة، وإدراك وحدة الإنسان والطبيعة والكون. وهكذا، بدأ العلم، وهو يلج باب الحكمة، يسعى إلى معرفة القانون الواحد الشامل لجميع القوانين الفيزيائية والبيولوجية والكيميائية وغيرها.

يمكننا أن نلخِّص التأليف الحاصل في جدلية التراجع والهبوط، وفي عملية التطور والصعود:

١- الحكمة تراجعت إلى محبة الحكمة، والوحدة تراجعت إلى الثنائية.

٢- محبة الحكمة تراجعت إلى الطقوس والعقائد والمذاهب.

٣- العلم، وهو فلسفة الواقع، بدأ يتخلَّص من إشراطات التعددية.

٤- العلم، ممثلًا بالفعل المنطقي، بدأ يستشف الوحدة الشاملة للتنوع؛ العلم بدأ رحلة عودته إلى الحكمة.

٥- عودة العلم إلى الحكمة تشير إلى لقاء الألف والياء: ألف الحكمة وياء المعرفة العلمية.

٦- تشير محبة الحكمة إلى الثورة العلمية الأولى المتجهة بكلِّيتها إلى معرفة الوجود وفهم حقيقته. كان آدم الإنسان، يوم تراجع إلى العقل، العالِمَ الأول والفيلسوف الأول المحبَّ للحكمة.

٧- العلم، وهو المحاولة المثابرة لتجاوز التعددية الممثلة في الطبيعة والمجتمع والفكر، فلسفة واقعية تحاول أن تتلمَّس الطريق عبر معطيات الإدراك الحسِّي والتجربة المختبَرة.

٨- العلم، في نهاية عهده أو في نهاية الدور الحالي، عودة إلى الحكمة: هو معرفة حقيقة جوهر المادة والوجود، وتحقيق الألف – البداية في الياء – النهاية.

٩- الحكمة وعي مباشر، بحدسٍ مباشر، لوحدة الكيان الإنساني والوجود الكوني؛ هي معرفة الكائن الإنساني لاتصاليَّته مع كل شيء. والعلم، في جوهره، حكمة تطرح ذاتها على بساط التجربة والاختبار، ووعي ومعرفة بهذه الحقيقة، وفي ظاهره، نقيض هذه الحكمة. والعلم، وهو يتلمَّس طريقه إلى المعرفة والولوج إلى أعماق المادة، يشير إلى أنه حكمة مطروحة على مستوى التجربة والاختبار. وبعد أن يسبر العلمُ العالم المادي في التجربة والاختبار، يدرك أنه الحكمة ذاتها المحققة في تاريخ الأرض على نحو عقل.

١٠- تراجُع الحكمة إلى العقل يتمثل بتراجع الإنسان عن كيانه الروحي. وعلى هذا الأساس، لا يتدرَّج التطور في جدليَّته الهابطة صعودًا، بل

يمثل تقهقرًا يتمثل، بدوره، بوعي الحقيقة عبر التجربة والاختبار. وعلى غير ذلك، يتدرَّج في جدليَّته الصاعدة حتى يبلغ ذروته في الحكمة، إذ يبلغ الياء التي هي الألف ذاتها. وهكذا، يكون كمال الأشياء ماثلاً أو قائماً في بداياتها.

١١- تتجه الروح إلى الحقيقة، وهي تعي الحقيقة مباشرة؛ إذن، هي أحادية الاتجاه. والعقل يدرك الحقيقة بتأليف الثنائية والتعددية التي يختبرها في التجربة؛ لذا، يخطئ العقل ويصيب نسبيّاً وهو في سبيله إلى المعرفة. وهكذا، تكون النسبية من نصيب العقل والإطلاقية من نصيب الروح.

١٢- هلاك الجنس البشري مرتبط بزيادة التكنولوجيا التي تطوف على سطح المادة دون التوغل إلى جوهرها. وخلاص الجنس البشري مرتبط بتوحيد الحكمة والعلم أو بتكاملهما.

١٣- هلاك الجنس البشري منوط بزيادة التكنولوجيا العدوانية وخضوعها للعقل التحتي أو المتدنِّي الخارج عن نطاق العقل؛ هو العقل المتدنِّي الذي تتميز به الفئات التي تستغل هذه التكنولوجيا لمصلحتها، الفئات التي تقف من الحكمة موقف العداء، لسبب هو أنها تسلب العقل المنطقي والعلمي وكيان الروح الإنسانية من جوهرهما.

نتساءل من جديد: ما دور العقل في هذا الخلاص أو الهلاك؟ كيف يكون اللقاء التأليفي أو التكاملي للحكمة والعلم خلاصًا لأبناء كوكب الأرض؟

الحكمة معرفة مباشرة. وهذه المعرفة المباشرة لا تعتمد أداة، ولا تؤسِّس مبادئها على تكنولوجيا. وفي سبيل معرفة المادة، لا يعتمد الحكماء أداة هي العقل أو تكنولوجيا، بل يعاينون حقيقة المادة في الرؤية الداخلية العميقة، أي في التجربة الروحية الداخلية. وفي هذه المشاهدة أو المعاينة الداخلية، تتعرف الحكمة على أصل الكون وأصل المادة على هيئة فيلم تتصل بداياته بنهاياته؛

إنها تدرك كيف وُجِدَت الحياة، وكيف وُجِدَت المادة، وتشاهد هذه العملية الكونية في رؤياها الداخلية. ويعمل الحكماء على تدوين هذه الحقيقة لكي ينقلوها إلى النخبة الموهوبة التي تتلقَّى منهم ما دوَّنوه في سجلِّ حكمتهم. وتشاهد هذه الحكمة المادة في أثناء تطوُّرها وبعد تشكُّلها في الأنواع والتعدديات. ولا تحتاج هذه الحكمة، أو المعرفة الروحية، الموصوفة بالعرفان، إلى وساطة الأدوات التكنولوجية؛ إنها لا تحتاج إلى تلسكوب (منظار فلكي) أو مكروسكوب (مجهر) لأنها تعاين الحقائق التي ينطوي عليها الوجود في جوهرها وفي ظاهراتها. لذا، كان علمها هو معرفتها بحقيقتها وحقيقة الوجود. وعندئذٍ، لا تستغل الحكمة الطاقة المادية لأن الطاقة المادية الحية كامنة وكائنة فيها، ولا تستخدم وسائط النقل لأنها قادرة أن تكون حاضرة في كل زمان ومكان، ولا تستعمل أي نوع من الأدوات لأنها قادرة على المعاينة والمشاهدة.

الآن، يمكننا أن نسأل: أين تكمن المشكلة؟

تكمن المشكلة في الثنائية النزاعية بين العقل والمادة؛ هذه الثنائية التي لا تجد لها موضعًا في الحكمة والوعي الروحي. إذن، فالثنائية، التي كرَّسها أنصار المذهب الميكانيكي، أدت إلى فصل العقل عن الوجود، عن المادة والطاقة والكون، وأخضعت العقل لآلية الدماغ. ومع ذلك، أنشأ العقل جسورًا بينه وبين العالم المادي والكون الواسع. وتمثلت هذه الجسور بالأدوات والأجهزة التي استخدمها ليرى، ليجرِّب، ليختبر ويستنتج. ودُعيت هذه الأجهزة والأدوات تكنولوجيا ناعمة ومفيدة. لكن الخطر تفاقم بوجود التكنولوجيا العدوانية، فبلغ العالم الأرضي حافة الانهيار.

ثمة حقيقة يدركها علماء – حكماء، يزداد عددهم يومًا بعد يوم، أن الأداة المستخدمة، أي التكنولوجيا الناعمة المستخدَمة، ليست أداة صلة فحسب. ففي الماضي، أي مرحلة التجربة العلمية حتى الربع الأول من القرن العشرين، اعتقد

العلماء أن تفكير العقل يختلف عن النتائج التي يحصل عليها من دراسته للمادة، أي الموضوع، وأنه وليس ثمة علاقة للعقل مع المادة، أي الموضوع الخارجي؛ هذا، لأن الأشياء تسلك سبيلها بمعزل عن العقل، أو بمعزل عن تأثُّر العقل بها أو تأثيره فيها؛ والأداة المستعملة لا تتدخل في التجربة من قريب أو بعيد، بل هي مجرَّد واسطة للدراسة والبحث. لكن الحقيقة بدت على نقيض ما اعتقده أو ظنَّه علماء القرون الثلاثة الأخيرة. فقد كشفت الحقيقة، الناتجة عن زيادة المعرفة عبر التجربة والاختبار، أن العلاقة قائمة بين الإنسان، وأداة تجربته، والموضوع المختبَر؛ وأعني أن العلاقة قائمة بين المراقِب الذي هو العقل، وأداة المراقبة، والموضوع المراقَب الذي هو المادة، أي العالم الخارجي. وإن كانت معرفة العقل حصيلة معرفته أو وعيه أو علمه بما يحيط به من موضوعات، فلأن العلم القائم في الأشكال والأشياء والموجودات والموضوعات هو العلم ذاته القائم في العقل.

نتساءل من جديد: أين تكمن الخطورة؟

تكمن الخطورة في مرحلة حدوث التجربة حين يكون العقل منفصلًا عن موضوعه. والحق إن انفصال العقل عن موضوعه، واستقلاله عنه، وتعاليه عليه، واختلافه عنه، أمر يشير إلى سوء العاقبة. وفي هذه الحالة، يقف العقل من المادة موقف العداء. وإذا سيطر العقل على المادة، وانفعل إزاءها، واستغلَّها، تمثَّلت النتيجة في كارثة تقع للبشرية. وهكذا، نعلم أن الثنائية تجعل العقل عدوًّا للمادة، وذلك إن كان العقل يمايز ذاته عن الواقع المادي الذي يستمد منه القوانين الممثلة بالمعرفة. وفي التجربة، يطلق العقل عِداءه، وانفصاله، واستغلاله، وانفعاله، وسيطَرته الزائفة، على المادة، الأمر الذي يؤدي إلى تفجيرها والحيلولة دون توافقها وانسجامها معه. والحق أن التوافق أو الانسجام لا يتحقق إلَّا في الحكمة التي تبني جسور المحبة

والتكامل مع المادة. في هذه الحالة، يشاهد العقل فعل الحياة الذي تؤدِّيه المادة وتحتويه.

هكذا، نعلم أن الانسجام ينشأ بين العقل والعالم المادي، أي بين العقل والموضوع. وعندئذٍ، يبطل العِداء بينهما. وفي النتيجة، يعود عالم الكثرة إلى وحدته في العقل. وعلى غير ذلك، يحدث انقسام بين العقل والموضوع يتجلَّى في هيئة عِداء وفصام. فإذا تمت التجربة في الوضع الذي يكون العقل منفصلاً عن المادة، منفعلًا إزاءها، كانت النتيجة كارثة تتمثل، في حدِّها الأدنى، بانفجار المادة. لذا، كان انشطار الذرة ناتجاً عن فعل عقلي عِدائي هو فعل عقل تكنولوجي عدواني. وبالإضافة إلى ما أذكره، أقول: إن العقل المنفصل والمتدنِّي يثير المادة ضد المادة، والجزء ضد الجزء، والذرة ضد الذرة بواسطة التكنولوجيا العدوانية المستخدَمة. وهكذا، يحرِّض العقل المنفصل، أي العقل التَّحتي، العداء بين الذرات والجزيئات والجسيمات، الأمر الذي يجعلها تدمِّر بعضها بعضًا؛ ويؤدي هذا التحريض إلى وقوع الكارثة.

يتجه ندائي، وأنا أرسم هذه الصورة، إلى علماء الفيزياء الإنسانيين ليعيدوا الإنسجام المفقود بين العلم والحكمة. والحق يقال، إن أولئك العلماء يعتقدون أن أي تفجير للمادة أو أي انحراف عن مسارها، أو أي تدمير للمادة من قبل المادة، أو أي تدخل للمادة في المادة أو للجزيء في الجزيء، أو أي تدخل للعقل العدواني في المادة، أمر يشير إلى تدخل العقل المنفصل أو سيطرته على المادة، وعلى انحراف مسارها الكوني. وهكذا، يمكننا أن نستنتج ما يلي: كلَّما زادت التكنولوجيا العدوانية الناتجة عن سيطرة العقل المتدني المنفصل، زاد احتمال حدوث الكارثة. لذا، تكمن الفاجعة، أي الخطورة، في العقل الذي يتبنى، عبر انفعاله، التكنولوجيا العدوانية، ويطبِّقها، بعدائه، على المادة التي تعمل بهدوء في أثناء تطورها دون تدخل العقل المنفصل بعدوانيته.

هكذا، نعلم أن مصير العالم يتوقف على توافق الحكمة والعلم. وعلى غير ذلك، تشير سيطرة العقل التكنولوجي العدواني إلى كارثة كبرى. وبالإضافة إلى ذلك، يشير انفصاله عن المادة والروح معًا إلى تعاظم الكارثة. ولمَّا كان هذا الانفصال أو العداء يزداد بزيادة التكنولوجيا العدوانية، فإن الكارثة تزداد بتفاقم هذه التكنولوجيا.

فلسفة الأمل

تتضمَّن فلسفة الأمل في الموقف الحكيم من العالم والكون، وفي التعامل الإيجابي والواعي من الحياة. وتتجلَّى أيضًا في فهم الإنسان للمغزى المتضمن في الوجود عامة، وفي وجودنا خاصة، وفي الجهد الدؤوب والدائم لتحقيق هذا المغزى والقيمة الملازمة لوجودنا. لذا، كان الأمل الماثل في الوعي حكمة الحياة التي تشير إلى تنشيط الطاقة والقوة المحركة لتحقيق مستويات أعلى للوعي على مستوى كوكب الأرض الذي، وإنْ كان المستوى الأدنى للوجود، يشير إلى *تحقيق الأعلى والأسمى في الأدنى*. وفي هذا المنظور، لا تُعتبَر فلسفة الأمل نظرة أو مفهومًا سطحيّاً وعاديّاً للحياة.

في سبيل فهم وافٍ لفلسفة الأمل، أسعى إلى توضيح المفاهيم التالية:

أولاً: تشكل *الصعوبة* المبدأ أو القانون السائد على كوكب الأرض. ويتسنَّم عالم الأرض المستوى الأدنى من مستويات العوالم. ويقضي وجود الإنسان في هذا العالم تحقيق مستوى وعي أعلى وأسمى. والحق أن وجود الصعوبة ينفي وجود المصيبة؛ إذ ليست المصيبة غير صعوبة لم يتغلَّب الإنسان عليها أو لم يتجاوزها. لذا، لا يُحتمَل وجودُ مصيبة في صلب الوجود، لسبب هو أنها نتيجة وليست سببًا. ولا يمكننا الإقرار بوجود مصائب متعددة وفردية، لأن جمعها يعني وجود مصيبة واحدة هي وجودنا. وهذا واقع لا يعترف به الإنسان الواعي.

يشير الاعتراف بوجود صعوبة، واعتبارها مبدأً يهيمن على وجود الإنسان، إلى أن العقل لا يتطور إلَّا في نطاق الصوبة. فلولا الصعوبة لما كان الإنسان بحاجة إلى عقل ووعي يوازيان الصعوبة ويتجاوزانها في آنٍ واحد إلى عقل مستنير أو وعي كوني. ولا شك أن الصعوبة تنسحب على قيمة وجودنا ومعناه. وبالفعل، نردِّد مع الحكماء الذين ينوِّهون إلى أن الضرورة تقضي تحقيق الحكمة والوعي في أدنى العوالم وأكثرها صعوبة.

ثانياً: تتجاوز الطاقة الفاعلة في الإنسان والعالم ذاتها إلى مستويات أسمى من الوجود والكينونة في تنشيطٍ أو تفعيلٍ ديناميكيٍّ دائم. فلكي يتسامى الإنسان في وجوده الأرضي، عليه أن يسعى إلى تحويل وجوده إلى وجوب؛ هذا، لأن الوجود، كما هو معطى، واقع يتطلب جهدًا عقليّاً ونفسيّاً وروحيّاً، هو وجوب. وهكذا، يعمل الإنسان جاهدًا لتنشيط واقعه والواقع الطبيعي وتحقيقهما في وجوب، أي تحويلهما إلى ما يجب أن يكونا. والحق أن الإنسان يرفض وجوده على نحو معطيات واقعية؛ وعلى غير ذلك، يشاهد صورة وجوده في رؤيا مثالية وسامية للكون والحياة. ففي أعماق الإنسان نداء إلى الأعلى، وتوق إلى اللَّامحدود واللَّاموصوف واللَّانهائي.

ثالثاً: تتجلَّى حقيقة العالم في محبة الإنسان له. ولئن وقف العقل من الوجود الأرضي موقف الرفض أحيانًا، إلا أن كيانه يحنُّ إلى وجوده، ويحب الطبيعة ويتعاطف معها، ويتناغم معها في صميم وحدة لا تنفصم أو في تكامل لا يقبل التناقض. إذن، فمحبة الإنسان للعالم قضية تساعده على تحقيق مبادئه أو قوانينه العميقة في ذاتها، ويعاني فيه صعوبته الماثلة في الذرة والخلية والمجرَّة، ويدرك أن قانونه وقانون الكون وقانون الطبيعة واحد، وأن تحقيق وجوده يعني تحقيق وجود الكون. في هذه المحبة، ينفتح الوعي الفردي، يتعمَّق ويتسع، ويصبح وعيًا كونيًّا يغمر العالم بضيائه، وينقذه من متاهة الضياع في كهفه. وعندئذٍ، يبطل اعتبار العالم مصيبته، ويستشرف

الإنسان الاتصالية الكونية، ويدرك أن تحقيق الأسمى ماثل في تحقيق الأدنى. في هذا السياق، يشير إلى الكل الكثيف الذي يفصح عن ذاته في سلسلة من الانعتاقات المؤدية إلى حريات تبلغ حدود الحقيقة السامية اللّامشروطة. والحق أن محبة الأدنى، الذي هو المستوى الأول، تكمن في محبة الأعلى.

رابعاً: في هذه المحبة، وفي هذه الوعي والانسجام بين ما هو فردي وما هو كوني، يدرك الإنسان قيمة الحياة ومعناها؛ وفي هذا المستوى، يصبح قادرًا على التمييز بين الحياة والمعيشة؛ هذا، لأن الحياة هي الوعي الذي يحقق طاقات الوجود العقلية والروحية كلَّها. وفي تساؤلنا إن كنَّا نحيا أم نعيش، ندرك أننا ننساق في تيار *المعيشة* الذي يُشرِطُنا، ويحوِّل العالم إلى جحيم حافل بالكراهية، والاستغلال، والأنانية، والجهل، وعقدة النقص المعوَّض عنها بعقدة العظمة، والتعصب، والتطرف والعيش في ظل مركزية الأنا. وعلى غير ذلك، تتجلَّى *الحياة* في الفاعلية التي ترفع الإنسان إلى أعلى المستويات الماثلة في العلم المتكامل مع المعرفة من أجل المعرفة، ومع الوعي والمحبة والحكمة. وبالفعل، تضع هذه القيم السامية نهاية للبؤس المتفاقم، وتشيِّد أرض الحقيقة التي تخلو من الطرق الملتوية. في هذه الأرض الجميلة بخصائصها، يبطل السؤال: ما هو مصير الإنسان والعالم؟

خامساً: أصبحنا ندرك أن العقل مصباح يضيء بطاقة تتجاوز الدماغ وتنبثق إلى الواقع أو ترسل ذاتها إلى عالم الخارج بصورها العديدة: الإحساس، والشعور، والعاطفة، والاهتمام، والانتباه، والتركيز، والتذكر، والتبصُّر، إلخ. ويُعَدُّ الدماغ الأداة التي، من خلالها، ترسل الطاقة الداخلية ذاتها إلى عالم الخارج. وهكذا، يُعتبَر الدماغ أداة ظهور العقل، تمامًا كما يُعتبَر العقل أداة ظهور الروح لفهم الطبيعة والوجود. لذا، كان العقل طاقة داخلية خالدة من حيث إنها تعبير للروح أو كشف لها؛ هو طاقة حية تتجه إلى العالم الخارجي.

-٨-

التطوُّر والوعي والحرِّية

البحث في الوعي والحرية بحث في الوجود وفي الوجوب، في الإمكان وفي الفعل، أي في التحقيق. فالوجود، على مستوى كوكب الأرض، تغلُّف على ذاته وانغلاق؛ تغلُّف يشتمل على إمكان الانفتاح والحرية. والوجوب، على المستوى ذاته، انفتاح وكشف، أي حرية. فالوجود يشير إلى تطور داخلي، في الطبيعة وفي الإنسان، يفصح عن ذاته في حركة داخلية، هي التفاف وانطواء، تتفتَّح أكثر فأكثر في ظاهرة ندعوها التطور.

في الوجود حركة داخلية، ملتفَّة على ذاتها ومنطوية، تفعل في ذاتها لكي تتحرر، لتصير إلى حركة جديدة تتغلَّف على ذاتها في شكل جديد، لتتحرر مرة أخرى ضمن تسلسل غائي عظيم. وفي المسيرة التطورية الطويلة، تتعرَّف المادة إلى ذاتها بفعل حرية يكشف الوعيُ الكامن، من خلالها، عن ظاهرات جديدة تتسامى وتتجاوز مرحلة أدنى أو أولية كانت قيدًا لها أو انغلاقًا يطويها ويُقصيها عن تحقيق كيانها. ولهذا السبب، كان التطور فعل حرية، أي حركة داخلية، تفصح عن ذاتها بظاهرة، تنطلق إلى مجال أوسع وأعظم في حقل الوجود لكي يصير إلى الوجوب، أي إلى ما يجب أن يكون. وهكذا، يكون التطور حركة بطيئة هادفة، تفعل فيه طاقة منطوية لا تتعرَّف بذاتها ما لم تتحرر من وجودها الأدنى المنطوي في صيرورة تسمو بها إلى ظاهرات جديدة في مسيرة الحياة. وعلى هذا الأساس، تمثِّل الحرية

فعل الحركة المتطورة؛ وبقولي هذا، أعني أن الكون يحقق مثاله، سائرًا من الأدنى إلى الأعلى. وليس الأدنى غير زيادة في تقليص الوعي والتغلُّف والانطواء، وليس الأعلى غير زيادة في الوعي والكشف والانفتاح والحرية.

يقتضي هذا المبدأ الاعتراف بالقدرة الداخلية في الكون، أو بالطاقة التي تفعل فيه، أو بالحياة التي تتحقق، أو بالروح التي تنطلق من انطوائها في الإنسان إلى الحرية، معبِّرةً عن انعتاق ضمني أسمى وأجل. ولمَّا كنَّا نعتقد أن لا شيء يأتي من لاشيء، فإننا نعترف أن الحرية التي حقَّقتها المتعضيات والكائنات المتطورة والمتحررة من ظاهراتها السابقة كانت قائمة ضمنًا، في الإمكان، في سابقاتها. ولهذا، فقد كان واجبًا على الكون، وهو وجوب، أن ينعتق من حالته الراهنة، وهو الوجود. لذا، كان التطور وجوبًا ينتقل الكون، من خلاله، إلى وجود أفضل يعبِّر عن حالة راهنة جديدة تتطلَّب وجودًا أفضل، هو وجوب، حتى يبلغ نهاية المطاف في الإنسان، ظاهرة الوجود الأرضي الكبرى، والوجوب الأعظم، والتطور الغائي الأقصى لحركة ضمنية تحرِّر الوعي من انطوائه وكثافته.

إن من يدرس *شجرة الحياة*، التي تمثل مسيرة تطور الحياة على مستوى كوكب الأرض، يتحقق من وجود قدرة فاعلة تدرك ذاتها أكثر فأكثر في عملية تطورية صاعدة، وتسعى إلى تحقيق المزيد من الوعي. وهكذا، فقد بدأت الكائنات الدنيا أو الأولية البسيطة تخلع عن ذاتها انطواءً، هو عبودية، كان يقيِّدها، وتلبس رداء جديدًا أو مظهرًا جديدًا. ولم تكن الحياة الممثلة في هذه الكائنات لتكتفي بظاهرة معينة، بل كانت تسير إلى الأمام لتحقيق المزيد من الحرية والمزيد من الوعي. وبهذه الطريقة، تتابعت الأنواع ضمن الجنس، وتعددت الأشكال ضمن الحقيقة الواحدة والحياة الواحدة، فانتهت أنواع لتحلَّ محلَّها أنواع أخرى تشتمل على سابقاتها دون أن تكون ذاتها في أشكالها السابقة. وهكذا، لا يكون التطور مجرد بقاء للأفضل، بمعنى الأقوى والأنسب،

بل تجاوُزٌ مستمرٌّ لعملية حياتية واحدة تبدأ بالأدنى لتنتهي بالأعلى، بالإنسان. وليست هذه العملية الحياتية إلَّا انتقالاً في حلقات متتابعة ضمن قدرة ندعوها الحياة – الحرية – الوعي، يتخطى بواسطتها الوجود المنغلق على ذاته إلى حالة أكثر فاعلية وسموًّا في عالم الحرية والوعي والحياة. وفي هذا المنظور، يُعَدُّ التطور تكاملاً لقدرة واحدة، تتعدَّد وتتنوَّع في ظاهرات عديدة، وتسير، على نحوٍ تدريجي وغائي، إلى الأعلى في تسلسل حياتي يعبِّر عن كشفٍ للوعي في كل سلسلة جديدة، حتى تصير إلى كيان مبدعٍ، يتغلَّف على ذاته من جديد ويطوي الطاقة كلَّها في ذاته، في عقله. وليس هذا الكيان إلَّا الإنسان.

إن مثال البذرة والشجرة، كمثال عياني بسيط، يرينا حقيقة الوجود في صورته الناصعة. ليست الشجرة شيئًا آخر سوى البذرة في مراحل تطورها: الجذع، والأغصان، والبراعم، والثمار هي وجود واحد يمتد من الأدنى إلى الأعلى، ويحقق في كل مرحلة مزيدًا من الحياة والحرية والكمال. إنها لا تحقق الحياة وهي مجرَّد جذع أو عندما تؤلف غصنًا، بل تكون سائرة في طريق تحقيق ذاتها. وهي تبلغ مستوى النضج والوعي عندما تحقق الغاية التي من أجلها وُجِدَت، هذه الغاية التي كانت قائمة في البذرة بفعل إمكان؛ إذ لا شيء في الشجرة لم يكن في البذرة من قبل. لقد فعلت الشجرة الكامنة في البذرة لكي تتحرر من ذاتيَّتها المغلقة لتنتشر في رحاب الحياة وتحقق وجودًا أسمى بفعل الطاقة المبدعة فيها، فانطلقت ضمن سلسلة من الانعتاق التدريجي إلى أن بلغت نضجها، أي حياتها وكمالها، لتعود إلى الانغلاق مرة ثانية في البذرة.

في هذا المنظور، ندرك أن التطور حركة ذاتية، تلقائية وداخلية، في الوجود والإنسان، تسير، من خلاله، روح الكون، أي الطاقة التي تغلِّفها ذاتية المادة، حتى تصل إلى تحقيق غاية الكون التي يظهر فيها الوعيُ من خلال تغلُّفه، والروحُ من خلال المادة، والعقلُ من خلال كثافته في الدماغ، والحركةُ من خلال السكون؛ الأمر الذي يجعل الكون ينشد ذاته ضمن هذه العملية

التطورية التي تتحرر فيها طاقته، ليشعر بوجوده ويعي حقيقته ومثاله. ولقد أشار العلماء – الحكماء إلى هذه الحقيقة عندما صرَّحوا بأن تطور الحياة قد عبر مراحل كانت الحياة تكشف فيها عن ذاتها بدرجات أعلى وأسمى بفعل الطاقة الحيوية المتضمنة في المادة والفاعلة فيها. ونحن نوافق أولئك العلماء – الحكماء الذين أشاروا إلى عظمة التحرر في خطَّين متعادلين ومتداخلين: خط مادي وآخر طاقي – نفسي – عقلي يتقدمان معًا ليصلا أخيراً إلى إظهار الطاقة الكونية في الكيان الإنساني. والحق أن العقل لم يوجد مصادفة، بل كان حصيلة تطور شاق، تغلَّف على ذاته في مادته، التي هي الخصائص العقلية الممثلة في الدقائق الأولية العائدة لمرحلة ما قبل تشكُّل العالم العضوي. وعلى هذا الأساس، سمت المادة بتعقيدها نحو تحقيق ذاتها بالوعي حتى بلغت المستوى الإنساني. وهكذا، يُعَدُّ الإنسان نتاج الحرية التي وعت ذاتها من خلال المسيرة التطورية. والتطور، أي الحرية، هو انفتاح وانعتاق دائم، وتحول إلى مستويات أكثر سموًّا في سلَّم الارتقاء، يبغي بلوغ الحقيقة التي سُنَّتْ على نحو قانون في الطبيعة لتعرف ذاتها.

تشير صورة الحرية هذه إلى المثال المتضمن في الوجود الأرضي، الذي يفعل جاهدًا لإدراك ذاته. ولمَّا كان هذا المثال مغلَّفًا في غياهب الكثافة، وآخذًا صورة السلب، وفاعلًا لتحرير ذاته، فإننا نميل إلى القول بوجود إرادتين في الوجود الأرضي: إحداهما سلبية وأخرى إيجابية.

الإرادة السلبية مقاومة تبديها الكثافة المادية لتحُول دون تطور المثال الكامن فيها، أو لتقف حائلاً بينه وبين بلوغ الغاية المرجوَّة؛ والإرادة الإيجابية مقاومة يبديها المثال المنطوي، على نحو حياة أو طاقة فاعلة، في المادة لينعتق ويتحرر. وكل صعود إلى الغاية التي تسمَّى تطورًا، أي حرية، وكلُّ تحرر من نطاق السلب، هو صعود للوجود؛ ونعني أنه انعتاق للمادة من ذاتها لتعي ذاتها. إذن، فالمادة تتطور لتتحرر من سلبها في كل مرحلة تحقِّق فيها الإرادةُ

الإيجابية، التي ندعوها الروح أو الطاقة أو الحياة أو المثال، ظاهرةً جديدةً تسمو على تلك التي سبقتها وتتضمَّنها. ففي الوجود إرادتان، سلبية وإيجابية، تتجاذبان وتتنافران، تتقاربان وتتباعدان، تتعارضان وتتكاملان، وتصبحان، في النهاية، إرادة إيجابية واحدة، وذلك عندما تتحرر الطاقة الكونية لتعود بالمادة، أو بالوجود، إلى ما كان عليه. والحق أن عملية التحرر تتطلب تدخُّل الإنسان كعنصر فعَّال في إثارة المادة للفعل والتحقيق في مستويات الوعي والحياة أكثر فأكثر.

هكذا، ندرك أن *الحرية وجود ووجوب*: إنها *وجود* منغلق على ذاته، مغلَّف بظاهرة السلب وملتف بها، يدأب دومًا للتحرر من ذاته ليعي ذاته؛ وهي *وجوب*، أي تعبير لما يجب أن يكون. لذا، كانت الحرية تمثيلاً للوجود كما يجب أن يكون. وكيف يكون الوجود كما يجب أن يكون؟ إنه يجب أن يتحرر من كثافته وتغلُّفه في سير حثيث نحو الروح، نحو الحقيقة السامية. إذن، فالحرية فعل عقلي وأخلاقي وروحي ومعرفي.

تكلَّل وعي الوجود الأرضي بوجود الإنسان، أي بظهور الوعي. فالإنسان هو مثال حرية الوجود المادي. وهكذا، يكون مثال هذا الوجود الذي يتمخض عن غايته الكامنة فيه، التي تغلَّفت بأنواع الحياة وأشكالها التي سادت من الأدنى إلى الأعلى، وانطلقت من الانغلاق إلى الانفتاح والوعي والروح، أي من الكثافة إلى اللطافة، ومن الظلام إلى النور. وكما يكون الإنسان مثال الوجود الأرضي وحريته، كذلك تكون الحقيقة السامية مثال الإنسان وحريته.

يمثل ظهور الإنسان مثال الكون الطبيعي المشتمل على الوعي والانغلاق، على الروح والمادة، على المقاومة الإيجابية والسلبية، على الخير وانعدامه. لقد عاد الإنسان يكرر كلَّ ما قام به الكون: في الإنسان، يعيد الكون ذاته إلى نقطة انطلاقه، أي التغلُّف على ذاته في الخلية، لينطلق إلى الإنسان

وينفتح عليه في وعي وحرية. وفي المادة، ينفتح الكون على ذاته لينفض عنه قيود ذاته عبر تلقائية فاعلة هي وعي كامن. لذا، يكون صعود الوجود الأرضي إلى الإنسان عمليةً داخليةً تتَّسم بتوجيه داخلي لطاقة مكنونة تفصح عن ذاتها لتعي ذاتها. ومتى وعت ذاتها، يتحقق وجود الإنسان.

إن انطلاق الإنسان من الخلية، في رحم أمه، دليل على تغلُّفه في غيبوبة، يبدأ من خلالها في الكشف عن ذاته في سلسلة من الوجودات المتطورة، يتحرر ضمن كل واحد من انغلاق سابق لينفتح على حقيقة جديدة. وهكذا، تكون حياة الإنسان رحلة تبدأ بالوعي الكامن، وصولًا إلى الوعي المنفتح؛ تبدأ بيقظة الوعي الكامن فيه، وتنتهي بإدراكه؛ أو تستمر بالوعي حتى تحقق الوعي الكوني الماثل فيها. وعلى هذا الأساس، يُعَدُّ الإنسان الكائن الوحيد المسؤول لأنه يعي، أو لأنه يدرك بأنه يعي.

لمَّا كان الإنسان يسعى إلى رفع قيمة ومعنى وجوده إلى مستوى المثال، فإن تطوره يكمن في العودة بالوجود إلى بدء انطلاقه الأول، أي كما كان في البدء. لذا، تكون العودة بالوجود كلِّه الممثَّل فيه إلى بدء انطلاقه الأول، أي الألف؛ وتقدُّمه إلى نهاية تطوره، أي إلى انعتاقه الكامل وانفتاحه إلى الوعي، حرية.

هكذا، يحقق الإنسان ما كان قد انطلق منه. لقد انطلق من بداية، هي الألف، وسوف يحقق نهاية، هي الياء. وليست نقطة الانطلاق إلَّا نقطة النهاية. وهكذا، يحقق كلٌّ من الوجود والإنسان نقطة البداية في نقطة النهاية، وتكون بداية النهاية ونهاية البداية. لذا، كان الوجود دائريّاً، تتصل فيه البداية بالنهاية.

عندما نبلغ هذه النقطة من الموضوع، نسأل أنفسنا: ما الحرية، أي الانفتاح والكشف؟ وما الانطواء، أي الكثافة والانغلاق؟

تطرح الإجابة ذاتها علينا في صورة أولية هي: مقاومة سلبية ومقاومة إيجابية، أو إرادة سلبية وأخرى إيجابية: هنالك السلب وهنالك الإيجاب. ويتمثل الإيجاب بكلِّ القيم التي ترفع الإنسان إلى الأعلى: المحبة، والمعرفة، والوعي؛ ويتمثل السلب بكلِّ ما يجذب الإنسان إلى الأسفل: الكراهية، والجهل، والأنانية. وبكلمة موجزة، يتمثل الإيجاب بالخير الكلِّي، ويتمثل السلب بانعدام الخير الكلِّي؛ يتمثل الإيجاب بالحكمة، ويتمثل السلب بانعدام الحكمة.

تتمثل المقاومة الإيجابية، التي هي مظهر روحي للطاقة، في الحرية؛ وتتمثل المقاومة السلبية، وهي مظهر مادي للطاقة، في الانغلاق. ويتمثل الانغلاق في العوائق التي تسيطر على الإنسان لتبقيه في عالم كثافته وسلب وعيه. ويبدو الانغلاق في المظاهر التالية: مركزية الأنا المتمثِّلة في كل ما يجعلها تواصل بقاءها، مثل: التملك، والكراهية، والجهل، والتعصب، إلخ؛ وتبدو الحرية في كل ما يتمثَّل في القيم التي يتبنَّاها الإنسان ليكون حاضرًا في عالم وعيه وحقيقته. وتتمثل هذه القيم، على سبيل المثال، في التجرُّد من التملُّك، وفي المحبة والمعرفة، إلخ. وهكذا، يعيق الانغلاق، الذي هو عبودية، كلَّ تقدم، أي كلَّ انفتاح وتحرُّر.

تشير هذه الدراسة إلى أن الإنسان لا يزال عبدًا، لا يزال يجهل الحرية النفسية. فهو لم يتحرر من قيوده الذاتية التي تشدُّه إلى الانغلاق في مركزية الأنا، وتُخضِعه لمقاومة المادة السلبية؛ إنه لا يزال يكره، ويحارب، ويشتهي، ويتملك، ويتسلَّط، ويتعصب، ويسير في متاهات الكثافة المادية وظلماتها، في متاهاتها وسلبياتها. وهكذا، يكون كلُّ خضوع أو استسلام للكثافة المادية، التي هي مقاومة سلبية، نفيًا للوعي، وكلُّ نفي للوعي عبودية. وبالمقابل، يكون كل خلاص من انغلاق الكثافة المادية معرفة ووعياً، وتكون كل معرفة أو وعي حرية. وهكذا، لا تتقدم الإنسانية، أي لا تتطور، إلَّا في الوعي الذي يحرِّرها من

إشراطاتها وقيودها العديدة. وعندئذٍ، تتخلَّص الإنسانية من آلامها السلبية، ومن الشرور الناتجة عن الجهل الملازم للتعصب والاعتقاد بامتلاك الحقيقة المطلقة، الذي يؤدي إلى إلغاء الآخر.

هنالك، في كلِّ عمل نفعله أو تصرُّف نسلكه، في مضمار الخير الكلِّي والوعي، حرية وانعتاق من إشراطات أنانيتنا. فلِمَ لا يفعل الإنسان، وهو يدرك أن آلامه السلبية، المجسَّدة بالمساوئ والشرور، هي حصيلة جهله وانغلاقه في زنزانة مركزية الأنا؟

الحرية في الإنسان تُناظِرُ الحتمية في المادة. فإذا كانت المادة، بفعل طاقتها الداخلية التلقائية، أي بفعل الحياة المنبثة فيها، قد فعلت لتحقيق المثال الكامن فيها الذي تجلَّى في الإنسان، فإنه جدير بالإنسان أن يسير بمادته، من جديد، حاملاً مشعلها، لينير طريق الوجود، ويحقق النور والضياء في فعل الوعي والمعرفة، وفي حصيلتهما: الخير والمحبة.

الإنسان يحمل، في كيانه، الحتمية والحرية: الحتمية القائمة في مادته، وهي مقاومة سالبة؛ والحرية القائمة في فعله الدؤوب في الوعي، وهو مقاومة إيجابية. ولهذا، تتدرَّج طاقة الإنسان في مراحل ثلاث متطورة:

١- مرحلة أولى هي الحتمية: وفيها يخضع الإنسان لقوانين وُضِعَتْ لمادته وفرديته، هي قوانين طبيعية وتجمُّعية.

٢- مرحلة ثانية هي العقلانية: وفيها يسعى الإنسان إلى عقلنة وجوده، أي مادته، ليتعرَّف إليها، ويفهمها، ويتحرر من حتمية الطبيعة ومن الإشراطات التجمُّعية التي قيَّدت عقله، ويكتمل في سرمدية الحياة والحقيقة.

٣- مرحلة ثالثة هي المثالية السامية: وفيها يتمُّ وجوب الإنسان ويكتمل، أكثر فأكثر، بفعل ماهية الحرية والوعي.

في المرحلة الأولى، يوجد الإنسان الذي لا يعرف الغاية من حياته، فيكون خاضعًا للتيه في انغلاق أناه. في هذه المرحلة، يعيش الإنسان في انفعالٍ خالٍ من الوعي، تتلاعب به الدوافع الحيوية المنفعلة، دون ارتباطه أو اتصاله بعالم العقل. في هذه الحالة، يكون سلوكه مجرَّد انعكاسات مجردة من الوعي. وتتمثل هذه المرحلة بالإنسان المكوَّن بحسب انفعالات الأنا. ونذكر، على سبيل المثال: الإنسان الجاهل، المتعصب، الطامع، المستغل، الأناني، إلخ، أي الإنسان الذي يخضع للتلقائية المنفعلة التي تتجرد من العقلانية.

في المرحلة الثانية، يوجد الإنسان العاقل الذي يدرك، من خلال دراسته للكون والطبيعة والوجود والمجتمع، المغزى الكامن في حياته. إنه يفعل في نطاق عقلي يتجه إلى مزيد من المعرفة والوعي. وتتمثل هذه المرحلة بالإنسان العاقل، العالم، وتتصف بالسعي الحثيث إلى الوعي المتماثل مع الطبيعة والمتجاوز لها. في هذه المرحلة، يتحرر الإنسان، بفعل عقلانية، من أناه المكوِّنة والمنفعلة، من تعصُّبه، من كرهه، من جهله، من استغلاله، من تملُّكه، من اعتقاده بامتلاك الحقيقة المطلقة، إلخ، ليصبح كائناً باحثاً عن الحقيقة.

في المرحلة الثالثة، يوجد الإنسان الحر، الذي يتمثل العالم والطبيعة والكون بعقله الفوقي المنفتح، ويتحرَّر من «أناه المغلقة» كليّاً، وينفتح على كونيَّته، ويبلغ مستوى الوعي الكوني.

هكذا، تشير الحياة إلى تطور متزايد بفعل ماهية الوعي والحرية. ويتمثل هذا التطور في تجاوز الظلمة من خلال النور، وتجاوز الشرِّ من خلال الخير، وتجاوز السلب من خلال الإيجاب، وتجاوز الجهل من خلال المعرفة، وتجاوز التعصب والانغلاق من خلال الانفتاح، إلخ.

كلُّ ما في الكون ينشد الوعي والحرية: المادة، من خلال طاقتها الباطنية الفاعلة التي تعمل بوعي مستتر؛ والإنسان، من خلال وعيه الكوني الكامن

والفاعل الذي يعمل بوعي كوني من خلال ظواهر الوجود المادية. لذا، كان الوعي والحرية ثورة داخلية تفعل في الوجود وفي الإنسان؛ وهما انعتاق من انطواء يغلِّفنا ويغلق علينا في حجاب يحجب عنَّا رؤية الحقيقة؛ وفيهما ندرك الحقيقة كما يجب أن تكون. فالحقيقة موجودة، وهي وجود، وتتطلب التحقيق في *الوجوب*، أي كما يجب أن تكون. وهكذا، يتمثل التطور في السعي الدائم والبحث المستمر عن الحقيقة، وفي الخلاص من الحتمية، والسموِّ إلى العقلانية المتسامية، والحياة في كونية الوجود، وحضور هذه الكونية الوجودية في *الآن*، في الحاضر الأبدي.

-٩-

تيار دُه شاردن

في كتابه *موضع الإنسان في الطبيعة*، يحدثنا العالم – الحكيم تيار دُه شاردن، الاختصاصي بعلم الپاليونطولوجيا، عن الذروة التي بلغها التطور بظهور الإنسان في الوجود الأرضي. وفي رأيه أن التطور بلغ قمَّة ديناميكيَّته وغايته. وفي كتابه *ظاهرة الإنسان*، تبلغ نظريته التطورية أوجها. وهكذا، يؤلِّف هذا العالم المبدع بين الخطَّين اللذين يتفاعل ضمنهما التطور، وهما: *الباطن*، أي الخصائص النفسية والعقلية، و*الظاهر*، الذي هو الشكل، ليلتقيا على نحو متكامل ومشترك في الإنسان. هكذا، يتحقق كمال التعقيد الأرضي، الصاعد إلى غايته النهائية، في الإنسان.

في كتابه *رؤية الماضي*، وهو موضوع بحثي، يتحدث تيار دُه شاردن عن موضع الإنسان في الطبيعة وفي الكون. وفي حديثه هذا، يكشف عن الموقع الذي يحتلُّه الإنسان في الكون، بحيث إنه يمكننا أن نتصوَّر أو ندرك الغاية النهائية للتطور بعد وجود الإنسان، أي الغاية التي يهدف التطور إلى تحقيقها في النطاقات العقلية والنفسية والأخلاقية والروحية.

أعتقد أن الأهمية الكامنة في هذا البحث تكمن في السؤال التالي: ما موضع الإنسان في الكون؟ يتأمل الإنسان القضية الهامة الماثلة في هذا السؤال، ويدرك أن أهمية هذه القضية تتأكد على صعيدين:

١- صعيد المعرفة: يتمثل هذا الصعيد في الإجابة عن الأسئلة التالية: ما أنا ؟ مَن أنا؟ ما حقيقتي؟

٢- صعيد الأفعال: يتمثل هذا الصعيد في السؤال ذاته، إنما في أبعاده الثلاثة: ما قيمتي؟ إلى أين أمضي؟ كيف أوجِّه حياتي؟

ظل الاعتقاد بأن الإنسان هو مركز الخليقة سائدًا حتى القرن السادس عشر. وإذا ما سعينا إلى تفسير هذه المركزية، أجبنا: الإنسان، الذي هو المركز الهندسي والقيمة المركزية لكون مؤلَّف من نطاقات أو مستويات، صُمِّم على نحو متراكز، أي متحد المراكز، حول الأرض. والحق أن الأمر لم يكن يحتمل غير هذا التفسير.

في غضون القرون الثلاثة التالية، التي بلغت نهايتها في القرن التاسع عشر، رأى العلماء، وهم يختبرون تجاربهم، عبث هذا المعتقد أو المنظور. ونتيجة لذلك، بدأ الإنسان يرى نفسه مختزَلاً إلى حدِّ اللَّاشيء في ضخامة كون تُعتبَر الأرضُ، في داخله، ذرة من الغبار وسط مجموعة كبرى من النجوم. وفي هذا المنظور، لم يعد الإنسان يحتل موضعًا هامًّا في الكون. وفي الوقت الحاضر، يعيد العلماء النظر في موضع الإنسان. وقد بدأوا يدركون أنه لا يحتل مركز عالم سكوني، بقدر ما يمثل مبدأ هامًّا في عالم ديناميكي، حيٍّ ومتحرك.

تعتمد هذه الدراسة على اكتشاف الإنسان للإنسان؛ أي أن الإنسان يكتشف نفسه في المعرفة. لذا، تتمثل هذه الدراسة في المبادئ الثلاثة التالية:

١- اللَّانهاية الكبرى واللَّانهاية الصغرى، أو «الوجود قبل ظهور الحياة».

٢- اللَّانهائي المعقَّد، أو «ظهور الحياة في الوجود».

٣- يتمثل الكون بلانهايات ثلاث؛ هو كون يتألَّق فيه الإنسان برفعته وتفوُّقه.

أولاً: اللَّانهائي الكبير واللَّانهائي الصغير أو «الوجود قبل ظهور الحياة»

تقضي ضرورة البحث اعتبار مناطق الكون وأبعاده ومستوياته وفق ما ترى الفيزياء الفلكية الحديثة، وذلك في سبيل إحياء وإعلاء شأن القيمة الإنسانية التي قلَّصتْها بعض النظريات العلمية لدى مقارنة هذه القيمة الإنسانية بالقيمة الكونية الشاملة. تتمثل هذه المناطق والمستويات والأبعاد في النقاط التالية:

أ- البنية الجسيمة للعالم: تكشف المادة عن ذاتها على نحو عناصر معايَرة أو متدرِّجة ذات حجم متزايد؛ وتشكِّل هذه العناصر كثرة في كل مستوى أو نطاق أو حالة.

ب- وجود ثلاثة أنظمة أو نطاقات من الحجم أو المقدار داخل العالم: وفق مصادفة فريدة من نوعها، يقف الإنسان، على نحوٍ تقريبي، في وسط المجموعات الكلِّية، بحيث إن اللَّانهائي الصغير يقع تحته واللَّانهائي الكبير يقع فوقه.

ت- وجود اختلاف كبير، أو فرق كبير، بين الجسيمات أو الدقائق الخاصة بهذه النطاقات الثلاثة. يحيا الإنسان بين اللَّانهائي الصغير واللَّانهائي الكبير. هكذا، توجد لانهايات ثلاث هي: ١- لانهاية الصغير؛ ٢- لانهاية الكبير؛ و٣- الإنسان الذي يمثل اللَّانهاية الثالثة؛ أي أنه يمثل تشابك اللَّانهايتين. وهذا يعني أن الإنسان يمثل الموضع الذي تلتقي فيه اللَّانهاية الكبرى واللَّانهاية الصغرى.

ث- تُعَدُّ هاتان اللَّانهايتان، وفق تعبير تيار دُه شاردن، قطبين متقابلين، ليس على نحو كميٍّ فقط، أو وفق مفهوم الاتساع أو الضخامة أو الصغر، بل أيضاً وفق مفهوم النوعية، التي تشير إلى أن غالبية الخصائص الأساسية للكون تصبح مختلفة في النطاق الكبير وفي النطاق الصغير عمَّا هي عليه، في ظهوراتها، في النطاق الأوسط الذي هو الوسط الإنساني، الذي يمثل تشابك اللَّانهايتين وتعقيدهما.

هكذا، يُعتبَر الإنسان لانهاية ثالثة يبلغ فيها التعقيد الأرضي أقصاه، ويتسنَّم الوعي المرافق لهذا التعقيد أعلى مستوياته. ويتمثل هذا التعقيد في لقاء اللَّانهايتين، الكبرى والصغرى، في الإنسان. ويمكننا أن نشبِّه هذا اللقاء بشجرة أرضية، تتعمَّق جذورها في المادة، وتمتد أغصانها وتتسع في الفضاء اللَّانهائي، وتلتقي، في نقطة وسطى، مع شجرة كونية تتعمَّق جذورها في اللَّانهاية، وتمتد أغصانها وتتسع أو تنتشر في المادة الأرضية. في هذا التعقيد، يتجلَّى التغاير المتبادل والودي الملازم للَّانهاتيين.

وفي هذا المنظور، نشاهد التشابك الذي يتصف به الكون الذي يقع فوقنا وتحتنا. وإذ نجد أنفسنا مستغرقين في هذا الوضع الكوني، نطرح على أنفسنا السؤال التالي: ما هو التأثير الأول الذي يخلِّفه ظهور أعماق هذا التشابك على عقولنا؟

في هذا الوضع الكوني، نرى أنفسنا مستغرقين في العمق الذي يحتجزنا بين اللَّانهائي الكبير واللَّانهائي الصغير. وعندئذٍ، تبدو لنا الحياة والإنسانية برمَّتها وكأنهما قد تجرَّدتا من القيمة والمعنى نتيجة للتيه في هذا التشابك المعقَّد. والحق أن ردَّ فعل العقل الإنساني على هذا العمق، الذي يؤدي به إلى الشعور بالتفاهة وهو ماثل في وسط لانهايتين، يجعله يعتقد بأنه يبحث عن ملجأ أو ملاذ داخل ثنائية تشير إلى استحالة توحيد العقل والمادة في كونين منفصلين يمتدَّان في اللَّانهاية دون أن يُسهِما في تحقيق بُعد واحد مشترك.

يعتقد تيار دُه شاردن أن الخلاص من هذا الوضع الظاهريِّ التناقض بين العقل والمادة، بين الفكر والموضوع، أو بين الروح والمادة، لا يتحقق إلَّا بإضافة لانهاية ثالثة إلى لانهايتي الصغير والكبير، هي، كما ذكرت سابقاً، التعقيد اللَّانهائي، أو تشابك اللَّانهايتين الكبرى والصغرى في لانهاية ثالثة هي الإنسان.

ثانياً: التعقيد اللَّانهائي أو ظهور الحياة في الوجود

ماذا نقصد بكلمة «تعقيد»؟ لا يشير التعقيد، الذي يظهر على نحو تجمُّع، إلى عدد العناصر المكوِّنة لهذا التجمع وتنوُّعها فحسب، بل وإلى ترتيبها أيضًا. والحق أن وضع النويَّات الذرِّية الثلاثمئة وستين بعضها مع بعض دون ترتيب يُعَدُّ مجرَّد تجمُّع يشير إلى التغاير وليس إلى التعقيد. لذا، يُعَدُّ التعقيد تغايُراً منظماً ومركزاً في آنٍ واحد. وعلى هذا الأساس، يقتضي تعقيد منظومة وجودَ عاملين أو عنصرين مختلفين. في هذه الحالة، تصبح الدقائق أو الجسيمات المادية أكبر فأكبر. وإذا ما تساءلنا: كيف تصبح أكبر؟ أجبنا: إنها تشكل تجمُّعات تتضخم على نحوٍ متزايد نتيجة لاتحادها بعضها مع بعض بطريقة تؤدي إلى تشكيل «تعقيدات» حقيقية على نحوٍ تجتمع فيه الجواهر في ذرَّات بسيطة، والذرَّات البسيطة في ذرَّات أكبر، والذرَّات الأكبر في جسيمات مُكَهرَبة في مادة شبه غروية، وهذه في خلايا، وهذه في نباتات وحيوانات.

نحاول الآن أن نقيس درجة هذه الجواهر والذرَّات، آخذين بعين الاعتبار عامل عدد الجواهر والذرَّات المتجمِّعة. وفي هذا الصدد، يقول تيار دُه شاردن: لم يحسب العلماء، لحدِّ الآن، عدد الجواهر المضمونة في أصغر خلية حيوانية. فإذا كان جسد الإنسان يشتمل على ألف مليار خلية تقريبًا، فيمكننا أن نقول إن عدد الجواهر في هذا الجسد تتساوى أو تتعادل مع ترتيب أو نظام المقدار العددي للمجرات. والحق أن الجواهر ليست مقسَّمة بطريقة متجانسة. فهي تشكل منظومة تراتبية متصلة مع الوحدات الجسيمية، أو وحدات الدقائق ذات الأنظمة أو الترتيبات المختلفة، بحيث إن الصلات أو الروابط الميكانيكية تتوضَّع على حلقات تنافذية تتوضَّع، بدورها، على حلقات إلكترونية. وهكذا، يتمثَّل الكون بلانهايات ثلاث، يفعل فيها الوعي والحرية التي تعني الخلاص من الإشراطات والقيود.

ثالثاً: الكون المتمثل بلانهايات ثلاث، أو رفعة الإنسان وتفوُّقه

يُعَدُّ التماسك أو الترابط والإنتاجية الاختبار الأعظم في نطاق العلم وفي النطاقات الفكرية الأخرى. وبالنسبة لعقولنا الباحثة، يتوطَّد اليقين الذي نعهده في نظريةٍ ويزداد، على نحوٍ أفضل وأكثر تأكيداً، بمقدار زيادة النظام الذي تفرضه هذه النظرية على النظرة التي تتبنَّاها عن العالم، وعلى قدرتها على تعزيز الحركة المتقدِّمة لقدرتنا على البحث والبناء وتوجيهها. في هذا المنظور، يحتل الإنسان مركزه في كون يتميَّز بلانهايات ثلاث. وسوف يتصرَّف، وفق هذا المنظور، وكأن هذا الكون هو الكون الحقيقي، فيحاول أن يرى ويدرك ما يحدث:

أ- تقوم علاقة طبيعية بين علم الفيزياء وعلم النفس؛ علاقة هي، في نظر بعضهم، غير قابلة للمصالحة. في هذه العلاقة، تتصل المادة بالوعي. ولا تعني هذه الصلة أن الوعي يصبح قابلًا للقياس على نحوٍ مباشر؛ وعلى غير ذلك، تعني هذه العلاقة أو الصلة أن الوعي يعمِّق جذوره وأصوله، على نحوٍ فيزيائي وعضوي، في عملية كونية واحدة تمثل الاهتمام الأكبر والأهم للفيزياء.

ب- في هذا الواقع، لا يُعَدُّ الوعيُ في ظاهره حدثًا غير مألوف، اتفاقيّاً أو تصادفيّاً، ويخرج عن كونه مجرَّد مصادفة عشوائية في الكون؛ وعلى غير ذلك، يُعَدُّ ظاهرة عامة ونظامية للاتجاه أو للانتقال التدريجي، العالمي والشامل، للمادة الكونية التي تتجه إلى تشكيل تجمُّعات ذرية أعلى على نحوٍ متزايد. وفي هذه الحالة، تظهر الحياة حيث تُتاح لها إمكانية الظهور في الكون.

ت- تتجه ظاهرة الوعي إلى الإفصاح عن ذاتها على نحوٍ أساسي وجوهري وهام، بحيث إنها لا تُعتبَر ظاهرة فيزيائية... إنها الظاهرة ذاتها.

نستطيع أن نخلص إلى نتيجة تجعلنا ندرك أن الإنسان، وهو يقف على منحنى أو منعطف التشكل الجزيئي، لا يحتل المرتبة الأولى بجسده؛ فبحسب مقدار أو كمية الجزيئات أو الدقائق المتجمِّعة في جسده، يقع موضعه، على سبيل المثال، دون مستوى الفيل أو الحوت. ومن المؤكد أن ملايين الخلايا المتجمِّعة في دماغه تشير إلى أن المادة قد بلغت ذروتها في نطاق التعقيد المتصل بالتنظيم المركَّز. ومن حيث الترتيب الزمني والبنيوي، يُعتبَر الإنسانُ الكائن الأخير المشكَّل أو المكوَّن، الكائن الأكثر تعقيدًا وتركيزًا بين جميع الذرَّات والجواهر. وهكذا، يكون الإنسان الموضع الأعلى الذي يحتلُّ المركز الأعلى في سلسلة البحوث الاختبارية. ففي كيانه، تسنَّم التطور الكوني ذروة وعي ذاته.

عندما نتأمل هذه الحقيقة، ندرك أن النظرية التجسيمية أو التشبيهية (الأنثروپومورفية) القديمة أخطأت في تقديرها أن الإنسان مجرَّد مركز هندسي كوَّنتْه الضرورة في كون ستاتيكي. وعلى غير ذلك، يظهر الإنسان، من جديد، على مُنحنٍ أو منعطف التشكل الجوهري والذري وهو يحمل العالم ويدفعه إلى الأمام. هكذا، يحتل كلُّ شيء مكانًا، أي موضعًا، ويتخذ كلُّ شيء شكلًا، انطلاقاً من الأدنى إلى الأعلى، في حاضر وماضي كونٍ تنجح فيه الفيزياء، في وضوح يخلو من التشويش أو الالتباس، في تضمين ظاهرة الطاقة الإشعاعية والظاهرة الروحية في حقيقة واحدة تتمثل في التماسك والترابط. بالإضافة إلى ذلك، نشاهد كلَّ شيء وهو يتألق في وسط الضياء، متجهاً إلى المستقبل: إنها الهناءة المنطوية في الغبطة أو السكينة السامية العظمى.

تؤكد الصفة المميَّزة للتشكل الجوهري والذري، الذي نتحدث عنه، عدم تعرُّضه للتوقف أو للانغلاق. وفي الوقت الحاضر، نشاهد موضع الإنسان عند نهايته. ومع ذلك، نتساءل: هل نجرؤ على القول أو التفكير بأنه يستطيع، أو يجب أن يمتدَّ ويتسع إلى ما هو أبعد؟ كيف يمكنه أن يتجاوز وضعه الحالي؟

ألا يحتل الإنسان، في وضعه الحالي، ذروة الوجود والكون؟ أليس هو فرعاً أو غصناً قائداً يؤكد، بنفسانيَّته الفائقة، انبثاق الوعي في جميع الأشياء، ويوجِّه هذا الوعي المنبثَّ في كل شيء؟ ومع ذلك، نتساءل مرة ثانية: ألا يمكن أن يكون البرعم الذي ينبثق منه كيانًا أكثر تعقيداً أو أكثر تركيزًا ممَّا هو عليه الآن؟ يُحتمَل أن يتحقق هذا التساؤل الذي لا يقوم على براهين قاطعة. والحق أن هذا المنظور يفترض هذا الانبثاق لكون بلانهايات ثلاث.

تشير الدراسة العلمية إلى أن العلماء، حتى الوقت الحاضر، لم يأخذوا إلَّا بالبنية الفردية للإنسان؛ وأقصد الجسد الذي يتألف من الآلاف المؤلفة من الخلايا، بالإضافة إلى الدماغ الذي يتشكل من الآلاف المؤلفة من النويَّات العصبية. وعلى الرغم من كون الإنسان فردًا مركزًا في ذاته، لكننا مع ذلك نتساءل: ألا يُعَدُّ عنصرًا يتسنَّم رتبة أعلى في علاقته مع تأليف جديد أعلى وأسمى؟ وإذا كانت الذرَّات تتشكل من مجموعات الإلكترونات والنويَّات، وتتشكل الجزيئات من مجموعات الذرَّات، وتتشكل الخلايا من مجموعات الجزيئات، فإنما لنسأل أنفسنا: ألا يُحتمَل وجودُ كيان يتشكل فوقنا هو أنسنة فائقة تتألف من مجموع الأشخاص المنظَّمين؟ ألا يُعَدُّ هذا التنظيم، الذي يتميَّز به أولئك الأشخاص المنظَّمون، الطريقة المنطقية الوحيدة للامتداد والتوسع باتجاه تعقيد أكثر تركيزًا، ووعي أعظم وأسمى، ندعوه «منحنى التشكل الذري أو الجوهري الشامل والكوني»؟ يمكننا أن نقول إن الرؤيا التي حلم علماء الاجتماع بتحقيقها بدأت تجد قواعد لها في العلم الذي بدأ، بدوره، يتيقَّن من وجود اللَّانهايات الثلاث.

يعتقد بعض العلماء أنه لا يزال يستحيل علينا أن نشكِّل فكرة عن صيغ أو أشكال الظهورات التي يمكن أن يتبنَّاها التشكل الذري الفوقي الأعظم الذي هو «دماغ الأدمغة»، أو يتبنَّاه النطاق العقلي الذي تحوكه أو تنسجه جميع العقول المفكرة الواعية على سطح الأرض. والحق أن كلَّ ما يستطيع العلماء

قوله، بهذا الصدد، هو أن الحريات الفردية، في هذا النمط الجديد من التركيب أو التأليف البيولوجي، كما يمكننا أن نتصور، تبلغ أقصاها عبر العلاقة العميقة والودِّية القائمة والمتبادلة بين التجمُّعات. وعلى الرغم من الخطورة المحدقة بتصوُّر وجود هذا التأليف البيولوجي المقبل وأبعاده، إلا أن العلماء، مع ذلك، بدأوا يفهمون ما يجب عليهم أن يفعلوا خلال مليارات عصور الحياة التي، وفق ما يقول علماء الفلك، تتوقع تطوراً مقبلاً للبشرية. وبالتالي، يستطيع العلماء أن يحدِّدوا، وهم يعتمدون على معرفتهم لمدى اتساع الكون وكثافته، الخطَّ العام للتقدم الذي يجب على الإنسان اتِّباعه على الطريق الذي يؤدي إلى المزيد من الانطلاق باتجاه وحدة أعظم. والحق أن مجرد السير على هذا الطريق يعني عدم القدرة على التوقف.

يُعَدُّ صعود الإنسان منحنى التعقيدات، وبلوغه نطاقات الوعي، قضية تشير إلى أمرين:

أ- استيقاظ خصائص جديدة وانبثاقها إلى الوجود.

ب- ظهور شكل أو صيغة خاصة للطاقة، يُحتمَل أن يكون أو تكون منحنى أو منعطفًا جديدًا يكشف عن ذاته على نحوٍ تتآلف فيه أشكال الطاقة الأخرى.

وإذ يبلغ الإنسان هذه المرحلة، يصبح قادرًا على تأليف جديد هو أبعد وأعلى من ذاته؛ وبالمثل، يصبح قادراً على امتلاك الإرادة الحرة التي تؤهِّله للقيام بهذا التأليف. وفي الوقت ذاته، يجب على الإنسان أن ينجذب إلى الأعلى بفعل جاذبية تفعل في داخله؛ وما لم ينجذب الإنسان إلى الأعلى، باتجاه «كينونة أسمى وأعظم»، فإنه، بالتأكيد، يحكم على نفسه بالفناء. في هذا المنظور، يلقي الإنسان على نفسه السؤالين التاليين:

أ- ماذا يتطلَّب التأليف الكوني من الإنسان الذي يوافق على التقدم في نطاق هذا العمل الحافل بالصعوبة والتعقيد؟

ب- ما هي الشروط أو الحالات التي تقضي بإنجاز الكون لها ليكون الإنسان قادرًا على الانجذاب باتجاه وعي يزداد على الدوام؟

يمكننا أن نجيب عن هذين السؤالين بما يلي: تقتضي الإجابة ألا يتخيل الإنسان توقُّف الحركة التي تدعوه إلى التقدم إلى الأمام أو تقهقُرها؛ هذا، لأنه يتعذر على الطبيعة أن تكون عكوساً، أي أنها لا تقبل التقهقر أو التوقف، أولًا، ولا تقاوَم، لسبب هو أن منحنى أو منعطف التشكل الجوهري والذري لا يتوقف، ثانياً. وهكذا، لا ينضوي التطور تحت مقولة «الخلَّاق» أو «المبدع» فحسب، بل نرى فيه التعبير الصادق للخلق والإبداع اللذين نحياهما أو نعانيهما في تجربتنا عبر الزمان والمكان.

في نهاية حديثي، أود أن أقول: في تكامله أو وحدة أبعاده، يعاين العلم، وهو يسمو إلى أو يعلو فوق عظمة الإنسان المكتشَفة حديثًا وعظمة البشرية المتجلِّية، الحقيقة الإلهية السامية التي تكشف عن ذاتها من جديد في المنظور الكوني الحديث.

في الوقت الحاضر، يتحدث العلم عن آفاق جديدة تحثُّ الإنسان على التفكير الواعي. والحق أن التوازن، الذي يراه الإنسان في العالم، لا يجد تعبيره الكامل في معادلات أينشتاين التي تَصدُق في عالم يتميَّز بلانهايتين بقدر ما يجد التعبير عنه في عالم يتميَّز بلانهايات ثلاث؛ عالم يدعو إلى تعقيد أكبر ووعي أعظم متى أفسح الإنسان مجالاً لفعالية التوقير والإجلال والأمل. ويشير هذا التوقير والإجلال والأمل إلى حقيقة تشتمل على المبادئ التالية:

أ- اليقين، أي الوعي، الذي يدعو إلى التأكيد على أوَّلية الإنسان في الطبيعة.

ب- اليقين، أي الوعي، الذي يدعو إلى التأكيد على وجود حقيقة سامية ومطلقة تملأ الكون.

ت- اليقين، أي الوعي، الذي يدعو إلى التأكيد على الحياة ضمن شموليةٍ تجمع أبناء البشرية في إنسانية واحدة، وتوحِّدهم في كيان كوني واحد.

يمكننا، كما يقول تيار دُه شاردن، أن نؤلِّف أو نُجمِل هذا الوعي-اليقين الثلاثي، الذي هو إيمان واعٍ ومعرفي، على النحو التالي:

أ- وصال مع الحقيقة الإلهية السامية؛

ب- وصال مع الأرض والطبيعة؛

ت- وصال مع الحقيقة الإلهية السامية عبر الأرض والطبيعة.

ندره اليازجي في سطور

. من مواليد مرمريتا، محافظة حمص، ١٩٣٢

. نال شهادة الماجستير بالعلوم الاقتصادية والسياسية من لبنان.

- عضو اتحاد الكتاب العرب.
- أسس دار الغربال للنشر في عام ١٩٧٣.
- باحث في تاريخ الحكمة والديانات القديمة وعلم النفس التكاملي.
- له إسهامات في الدراسات المقارنة بين الأديان والحضارات، كما ساهم في تأسيس الفكر الجديد الذي يدعو إلى رؤيا الوحدة بين الحكمة القديمة والعلم الحديث.
- شارك في العديد من المؤتمرات المحلية والدولية، وألقى محاضرات في الكثير من المدن السورية والعالمية.
- يرى أن أساس الحوار والتلاقي بين الثقافات والحضارات والشعوب يقوم على الوعي والمحبة والمبادئ الإنسانية المطبقة في الواقع.
- نشر في الدوريات السورية والعربية والأجنبية.
- ترجم العديد من الكتب، وألف أكثر من عشرين كتاباً نذكرها فيما يلي:

١- رسائل في حضارة البؤس

٢- رسائل في مبادئ الحياة

٣- الاشتراكية ومفهوم العدالة

٤- دراسة فلسفية للماركسية

٥- مقالة في العقل والنفس والروح

٦- فلسفة الإنسان الثائر

٧- بحوث فلسفية

٨- رد على التوراة

٩- رد على اليهودية واليهودية المسيحية

١٠- دراسات في المثالية الإنسانية

١١- المادة والروح تأليف جديد

١٢- المبدأ الكلي

١٣- تأملات في الحياة النفسية

١٤- وحدة الفكر الإنساني

١٥- ثقافة الحوار والتسامح

١٦- الصوفية

١٧- دراسة نفسية للعقيدة اليهودية

١٨- أزمة الإنسان المعاصر

١٩- هندسة الروح، أشكال صوفيا

٢٠- العقل من منظور العلم والحكمة

٢١ - موضع الإنسان في الطبيعة تيار ده شاردان ترجمة

٢٢- ظاهرة الإنسان تيار ده شاردان ترجمة

٢٣- الفكر الفلسفي الهندي راداكرشنان ومور ترجمة

٢٤ - التطور العلمي والروحي روبير لنسن ترجمة

٢٥- علم نفس يونغ يولاند جاكوبي ترجمة

٢٦- فكرة مقابل فكرة ألدوس هكسلي ترجمة

فهرس

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١٦م
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة